قصائدُ صنعت مجدي

وقصائدُ تعرضت لمقص الرقيب

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث

نزار قباني

قصائدُ صنعت مجدي
وقصائدُ تعرضت لمقص الرقيب

إعداد ودراسة: هاني الخيّر

أعلام الشعر العربي/نزار قباني/

قصائدٌ صنعت مجدي وقصائدٌ تعرضت لمقص الرقيب

إعداد ودراسة: هاني الخيّر

الطبعة الأولى: ٢٠٠٦.

عدد النسخ:١٠٠٠ نسخة.

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: فيصل حفيان.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

مؤسسة رسلان علاء الدين للطباعة النشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف:٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

أسهر معكم على ضوء حرف جميل.

على ضوء هذا القنديل الأخضر الذي يسمونه الشعر.

الشعر نار الإنسان.

ونار الإنسان لا تموت ما دام

في شرايين قلبه قطرة زيت..

قطرة حبّ.

نزار قباني

إضاءة

نزار قباني.... الشاعر الذي سحر العالم بالكلمات

شاعر من دمشق الخالدة، استطاعت ليالي الهوى والغرام والهيام، أن تخلق منه شاعر متميزا استثنائياً، يداعب بألفاظه الرقيقة نفوس الشباب وعقول الناس.

وهو يمتاز بتخير اللفظة المرنة، والمعنى الحالم، فيلبسه ألوانا زاهية من أردية اللحن والموسيقى والعاطفة المتقدة.

بزغ في سماء دمشق في نهايات الحرب العالمية الثانية، نجم (نزار قباني) الذي هجر الطريقة القديمة في الشعر، ونحا منحى جديدا في التعبير عن عواطفه الهائجة وأمانيه العذاب، من خلال صياغة علاقة جديدة بين الرجل والمرأة، وفق هندسة إنسانية غير مألوفة.

كان من عوامل نجاح شعره، أنه جاء في مناخ نفسي ملَّ فيه طلبة المدارس والمعاهد والجامعات ما يحشر في أذهانهم وفي دفاترهم من حكم ومطولات (زهير ابن أبي سلمى) وفخر (المتنبي) الجد الأكبر للشعراء العرب، ومدائح وتعقيدات (حبيب بن أوس الطائي)، ووصف (البحتري)، بالإضافة إلى ما كان مخيماً على نفوس الشباب والجيل الجديد، من ظلال القيود الاجتماعية الصارمة، ومن سحب السياسات الاستعمارية الغاشمة، والتخبط العشوائي للحكومات المحلية المتعاقبة على السلطة تجاه القضايا المصيرية الكبرى. فكانت المناسبة مواتية للشاعر، لأن يعزف لحناً جديداً على قيثارة شعر الهوى وتباريح الشوق، وهجران الحبيب أو الحبيبة، وليالي السهد والأرق، فيصور بريشة الرّسام المبدع، خلجات القلب الدافئة،

بطلاقة النفس وصراحة القول وحرية العصر دون تلعثم أو اضطراب.. فعزف شاعرنا ألحاناً، ونظم أشعاراً جريئة تقبلتها المرأة قبل الرجل، فكانت من دعاة هذه الأشعار ومن أنصارها. و(المرأة) عندما تدخل الفكرة المحببة إلى قلبها، دخولاً رقيقاً كعواطفها، سرعان ما تنشرها وتذيعها، وتدافع عنها بعناد، وتتغنى بمعانيها ومراميها ومفرداتها.

لقد عرف الشاعر هذه الناحية في عواطف الناس الجياشة، ناحية المحبة وسلطان الهوى والغرام، فأخذ يعزف ويوقع أشعاره على أوتارها.

وقلة هم الشعراء الأفراد الذين يستطيعون بصورة سلسة، صياغة عباراتهم المتميزة، ذات الخصوصيّة الفنية العالية، في عالم الشعر الجميل وآفاقه اللامحدودة، كما تصك الدول علاماتها الفارقة على أوراقها النقدية الورقية. لذلك لم يكن عفويا أن أطلق النقاد مقولة: (الأسلوب هو الرجل).

هذه الحالة الإبداعية والأناقة اللفظية، لا يجيدها إلاّ الشعراء الكبار، الذين لا يأتون إلى العالم، أو يظهرون في حياتنا العربية، إلاّ مرة واحدة في كل مئة عام، على حد تعبير الشاعر (ت.س. اليوت).

و(نزار قباني) شاعر الشام.. وشاعر الياسمين والورود النضرة.. وشاعر المرأة في حالتي العشق والاضطهاد، والصوت الجريء المدوي للإنسان المسحوق المحاصر، الذي لا صوت له، وشاعر العرب هو واحد من هؤلاء الشعراء الكبار على خارطة الشعر العربي المعاصر.

يكفي أن تعثر على قصاصة ورقية مهملة أو ضائعة على قارعة الطريق، أو في خزانة خشبية مهملة ورثتها عن والدك، حتى تعرف بسهولة ودون أدنى عناء أنها من كتابات نزار قباني، ومن قاموسه الشعري، ومن لغته التي استمدها من مفردات الأحاديث اليومية.

لقد خلق شاعرنا الكبير لغة خاصة به، كأنها أبجدية جديدة، وابتكر مفردات مدهشة وغير مألوفة ومطروقة في الشعر العربي القديم أو الحديث، مما أعطى لشعره العذب نشوة الشعر العظيم، وهذا البريق الخاطف في العيون الجميلة أو

الحزينة، وكذلك الانتشار الخرافي والذيوع الهائل في العواصم العربية كافة، وفي بعض العواصم العالمية...

ونذكر هنا استناداً إلى شهادة الأديبة المرموقة الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي، التي قامت – مشكورة – بترجمة مختارات شعرية حديثة لكوكبة من الشعراء العرب، من العربية إلى الإنكليزية، نذكر من هؤلاء الشعراء الكبار:

- **بدر شاكر السياب.**

- **أدونيس.**

- **محمود درويش.**

- **نزار قباني.**

فكانت المفاجأة الكبيرة تتلخص بأن الشعراء الكبار لم ينجحوا أبداً عند الترجمة. وقابل القراء في الولايات المتحدة الأمريكية أعمالهم الشعرية- التي أعجبت القراء العرب إعجاباً لا مثيل له، بفتور ودون اكتراث يُذكر، وبحيادية تامة. طبعاً الذي نجح في الامتحان الصعب في (الإنكليزي) نجاحاً لا يقل عن نجاحه (بالعربي) كان (نزار قباني). وكانت أشعاره المترجمة إلى الإنكليزية، هي أشعاره في الحب، وليس الأشعار السياسية، أو التي يهاجم بها المرأة، وهذا يعني أن الشعر الإنساني، للوصول إلى العالمية، يجب أن يكون شمولياً، وكلما خاطب عواطف الإنسان الدائمة، وتجارب الإنسان الدائمة عبر القرون، في أي وقت وأي زمن، وأية لغة وأية حضارة، هذا الشعر يكون هو الأنجح كما صنع شاعرنا.

لقد أراد (نزار قباني) منذ العام /١٩٤٤/، حين أصدر ديوانه الأول الذي حمل اسم: (قالت لي السمراء)، أن يخطف بقصائده الأضواء، وأن يسترعي الانتباه بقوة إلى تجربته الشابة، فطبع من ديوانه الأول في طبعته الأولى/٣٠٠/ نسخة لا غير.

وتضمن ديوان (قالت لي السمراء) رسومات تعبيرية ساذجة، بريشة الشاعر نفسه، بالإضافة إلى غلاف مثير يحمل صورة امرأة عارية الصدر، هذه الصورة الجريئة لم تكن تسمح بها تقاليد دمشقُ الصارمة في الأربعينات. لكن الشاعر أطلق

ديوانه الأول مستعيناً بهيبة السياسي السوري المحنك الدكتور منير العجلاني، الذي تفهم نفسية الشاعر الشاب وطموحاته المشروعة في عالم الشعر فكتب بمهارة فنية مقدمة ديوان (قالت لي السمراء) فكانت هذه المقدمة الرصينة، شفاعة للشاعر عند الجمهور المتلقي الذي صدمه – في البدايات – هذا اللون من الشعر الجديد.

ومن بعد صدور الديوان الأول، أصبح هاجس الشاعر، أن يلغي بقصائده الجديدة كل ما قاله شعراء العشرينات، والثلاثينات، والأربعينات، من غزل وغيره، وهي مهمة صعبة للغاية إذا لم نقل شبه مستحيلة. أقول أراد أن يلغي غزل أمير الشعراء أحمد شوقي، وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، والأخطل الصغير، وسعيد عقل، وذلك حين جعل شعرهم الرقيق، يبدو بالمقارنة مع شعره، قديم القالب ومحاكاة غير موفقة لشعر عباسي أو مملوكي أو أندلسي. وهنا تكمن المفارقة الإبداعية.

من الطبيعي أن ينجز (نزار قباني) خلال مسيرته الشعرية الطويلة، قصائد رائعة صنعت مجده، وأسهمت بصورة مباشرة في رفع راياته وبيارقه، محلياً وعربياً ودولياً، ليصبح فتى الشعر الأول. وهذا الكتاب سيجعل هذه القصائد الغافية على حلم الحقيقة، تعود إلى الذاكرة بقوة مرة ثانية، مع التذكير بردود الأفعال التي قوبلت بها هذه القصائد المثيرة للجدل، والتي قسمت الرأي العام العربي بين مؤيد ومستنكر... وبين ساخط ومحب إلى حد التوثين.

لقد ترك (نزار قباني) لديوان الشعر العربي ثروة أسطورية من شعر الحب الخالد، الذي أسعد الملايين، وما يزال هذا الشعر بقادر على إيقاظ عاطفة الحب في أجمل صورها. كما ترك شاعرنا الراحل القصائد السياسية الاستفزازية الواخزة، من أجل محاربة الظلم والخنوع، والتصدي لأنظمة الذل والهوان والقمع، لتسطع شمس العرب من جديد، بعد أن تندحر جيوش الظلام.

وكما ذكرت سابقا.. فقد كان (نزار قباني) ظاهرة مثيرة للجدل، لا مثيل لها في حياتنا الثقافية العربية المعاصرة. إذْ انقسم النقاد والقراء حولها. بعضهم يدين شاعرنا بقسوة ودون رحمة ويعتبره ظاهرة مرضية شاذة تعمق حالة اللامسؤولية في

الشخصية العربية، وتدعو في الوقت نفسه إلى شيوع الإنحلال الأخلاقي في المجتمع العربي. فمثلاً هناك من يقول إنه كان قبل نكسة الخامس من حزيران العام /١٩٦٧م/ من شعراء الغزل الحسي، إذاً لم نقل الماجن، وهو بذلك قد أسهم بصورة مباشرة في تشويه جيل من الشبان والفتيات!؟

وهذه فكرة ظالمة وخاطئة، على حد تعبير الناقد المعروف رجاء النقاش، ولكن ما هو المعيار الفني وما هو الميزان الدقيق في هذا الموقف؟

لقد عرفت كل الآداب العالمية هذا النوع من الغزل ولم تتكره ولم تتبرأ منه. فقد عرفناه نحن العرب عند (امرئ القيس)، و(عمر بن أبي ربيعة)، و(أبي نواس)، وغيرهم.. وكل كتب تاريخ الأدب العربي القديم والحديث، تذكر هؤلاء الشعراء وتحتفي بهم، ولقد كتب معظم نقادنا في الجيل الماضي عن هؤلاء الشعراء، كتب عنهم: عباس محمود العقاد، وطه حسين، وعبد الرحمن صدقي، وإبراهيم عبد القادر المازني. وفي الآداب الغربية نجد هناك (بايرون)، و(بودلير)، و (رامبو)، و(فيرلين)، وغيرهم من شعراء الغزل الحسي، وهم ليسوا بملعونين ولا مطرودين من رحمة أهل النقد والفكر، ولم تتبرأ منهم بلادهم، أو تسحب جوازت سفرهم..

ومن الاتهامات التي توجه للشاعر(نزار قباني)، أنه بعد أن خسر جيوش المراهقين والمراهقات، وشريحة واسعة من القراء الكبار، نتيجة نكسة حزيران المؤلمة، اتجه إلى الشعر السياسي، ليجلد ظهور الجميع دون هوادة: الحاكم والمحكوم، التاريخ والتراث، بالتوبيخ والشتيمة وغليظ القول، من أجل أن يلفت الأنظار إليه من جديد. فكانت قصيدته الشهيرة المدوية التي حملت اسم: (هوامش على دفتر النكسة) المستمدة من صميم الحياة العربية الراكدة والمليئة بالصور السلبية. وهنا نقول وبصوت عال:

ألا يحق للشاعر أو الفنان أو السياسي، أن يغضب وأن يتألم وأن يصرخ إلى حدّ الإعياء، نتيجة لهزيمة الخامس من حزيران التي زلزلت الوجدان العربي في المساحة الجغرافية الممتدة من الماء إلى الماء...

وفي هذا الصدد يقول (نزار قباني):

"إن وظيفة القصيدة هي خلخلة العلاقات القائمة بين الإنسان والكون.. لا تثبيتها و المصالحة معها.. كيف يمكن للشاعر العربي اليوم أن يتصالح مع واقعه؟ كيف يمكنه أن يكون شاهداً على الانتحار الجماعي العربي دون أن يبكي، أو يصرخ، أو يحتج، أو يرمي نفسه من الطابق التاسع والتسعين!؟ كيف يمكنه أن يبقى في صفوف المتفرجين!؟ ".

وسيلمس القارئ الكريم بنفسه كما أشرنا، أن لغة شاعرنا مبسّطة ومأنوسة، لا غموض فيها ولا تعقيد، كأن الشاعر يصغي بكل جوارحه إلى ما يقوله الناس في مجالسهم الخاصة، وفي المقاهي العربية، وفي مكاشفاتهم، وكأنه يسجل ما يعتمل في أفكارهم وما يجري على ألسنتهم، ثم يصوغ ذلك صياغة شعرية، ويحاول أن يجري على هذه الصياغة ما أمكنه من تعبير شاعري.

لذلك لم يكن شاعراً رمزياً. إنه يكتب الشعر ليفهمه أو يتذوقه: المواطن العادي، وربة المنزل، والمعلم، والطالب، والمقاتل، وسائق سيارة الأجرة، ورئيس مجمع اللغة العربية، وكل من تحرر من براثن الأمية.

هذه السهولة، السهل الممتنع، وتدفق الألفاظ الأنيقة كشلال هادر، أكسبت شاعرنا شهرة واسعة. كما وأن بعض أشعاره التي غناها العديد من الفنانين والفنانات العرب، بتشجيع من الشاعر نفسه لاعتقاده بأن الشعب العربي يقرأ بأذنيه من جراء انتشار الأمية، أسهما في زيادة نجوميته وشعبيته من المحيط إلى الخليج.

ولا تعني هذه الشهرة المدوية، بأي حال من الأحوال، الدليل المؤكد على عظمة شعره وخلوده، قد يكون هذا النجاح الساحق، ضد القيمة الفنية، وضد ماهية الشعر العظيم، وعلى حساب المضمون، ورسالة الشعر عبر عصور التاريخ. لكن شاعرنا الموهوب استطاع برهافة أحاسيسه، ورصده لما يجري حوله من أحداث وسلوكيات وصراعات، أن يلامس وجدان القارئ، الذي يبحث عن بارقة أمل تسطع من قلب الظلام، في مناخ يموج بالاضطرابات الحادة والقلق الوجودي المخيف.

وهنا نسجل بكل أمانة الكلمة وشرفها، هذا الاعتراف العلني، من قبل الشاعر نفسه ليكون مدخلنا لتذوق شعره السياسي ومعرفة طبيعته وسماته:

((أنا أعتقد أن التحول من شعر الحب إلى شعر السياسة ليس تجارة رابحة مطلقاً، فالنوم في عيون النساء أكثر طمأنينة من النوم بين الأسلاك الشائكة.. والإنسان الذكي هو الذي لا يسقط في بئر السياسة في بلادنا. إن مملكة الحب تبقى أسعد الممالك..

إن تحولي إلى السياسة، وأنا لازلت أصرّ أنه لم يكن تحولاً، كان نتيجة هزة داخلية، كسرت كل ألواح الزجاج في نفسي.. دفعة واحدة.. ومن نثارات الزجاج التي خلّفها حزيران، على أرض حواسي، صرخت بصوت آخر.

وأريد أن أؤكد أن شعري السياسي علقني على أكثر من صليب، وأكثر من حبل مشنقة. إن نصف الأنظمة العربية تقف من شعري السياسي موقف العداء والرفض، وتمنع كتبي من دخول أراضيها، في حين أنها كانت تدللني كشاعر حب وتفتح لي ذراعيها)).

وضمن هذا السياق العام، أشير هنا إلى ظاهرة النرجسية في شعر (نزار قباني) وشخصيته، وهي تهمة لا ينكرها الشاعر نفسه، بل اعتبر شاعرنا أن كتاب الدكتور خريستو نجم الذي حمل اسم: (النرجسية في أدب نزار قباني) الصادر عن دار الرائد العربي في بيروت، من أهم وأعظم وأصدق الكتب النقدية النزيهة التي تناولته بموضوعية. والنرجسي هو الذي يحب نفسه ولكنه أيضاً هو الذي لا يعرف كيف يحب نفسه، أو هو الذي لا يحب نفسه على الإطلاق. كما أن الحب الصحيح لا يعرفه النرجسي، وإذا عرفه فإنه لا يستطيع الحفاظ عليه ورعايته أمام تقلبات الزمن، فيأبى النرجسي التعامل مع المرأة إلاّ من خلال ثنائية العبد والمولى فهو السيد وهي الجارية.

وبصورة عامة فإن النرجسية حالة نفسية من نتائجها توثين الذات وتقديسها وعبادتها وإلغاء وجود الآخر واستبدادية الاتجاه. أليس (نزار قباني) هو القائل:

((أدونيس ليست له علاقة بالشعر، منذ أن راح يشتغل بالكيمياء: أي بالتنظير الأدبي)) ويقصد بالتنظير كتابه الشهير (الثابت و المتحول).

-((عبد الوهاب البياتي هو حكواتي الشعر العربي، والواشي الكبير، والمرأة المطلقة، وابن آوى الذي يهاجم في الليل أعشاش الشعراء ويسرق بيوضهم ويخنق فراخهم. توقف عن كتابة الشعر وقراءته منذ عشرين عاماً. وأصبح عانساً وعاقراً وتفرغ ليشوي زملاءه

الشعراء على نار نفسه المريضة. لو كنت مسؤولاً لحاكمته بتهمة الفرار من الجندية.. ورمي الزبالة في الحدائق العامة!!)).

والذي يقرأ شعر (نزار قباني) يجد فيه أنه يتغنى بنبرة صوته وروعة جبهته، ورشاقة أصابعه وأناقة ثغره، وبجماله وبشهرته، وجاذبيته السحرية عند النساء. وبعبارة ثانية فإن شعره مرآة تنعكس فيها صورة الشاعر الجسمية فضلاً عن صورته النفسية، وشعوره المفرط بالعظمة والتفوق.

يقول نزار قباني:

"وصلتني رسالة من مواطن سوداني يطلب مني أن اسمح له بأن يسمي مولوده القادم باسم نزار طبعا وافقت. وكنت أزور منطقة جنوبية في السودان لا يوجد فيها شيء غير السوق الزراعية. تجولت هناك وإذا بي أرى فجأة ومن بعدي هرما هائلا" من النار. اقتربنا وإذا بولد في الرابعة عشرة من عمره يخرج من وراء الكوم الأحمر ويقول لي مرحباً نزار!؟ فقال المرافق كيف عرفت الأستاذ نزار؟ غضب الولد عند سماعه هذا الأخير وأجابه: أنا أتحداك وأتحدى معك الأستاذ نزار إذا عرفتم نزارا أكثر مما أعرفه فأنا لم أحفظ شعره فقط بل وحواراته الصحفية غيبا".

ويقول نزار فيما معناه:

((أنه قد باع من كتبه أكثر من عشرة ملايين نسخة عدا الطبعات المزورة. وأنه شاهد طفلاً يشتري مختارات من شعره، فسأله: عمو هل تحب شعري؟ أجابه طبعاً. فسأله من جديد: ولماذا تحبه؟ فقال الطفل: لأن شعرك يشبهني!.

وأنه تنكر مرة في ثياب امرأة، ليتمكن من الخروج بسلام من بين الجماهير التي جاءت للاستماع إلى شعره في وهران. وأن أجمل ما هزّه في بيروت أن سائقي سيارات الأجرة تضع شرائط تسجيل لشعره بدل الأغنيات)).

إن (نزار قباني) قد طبع على حب الاستعراض المسرحي، ويروقه الحديث عن نفسه، فهو يعتبر نفسه النجم السينمائي والشاعر في آن واحد. ومن حق الجمهور أن يعرف كل شيء عن نجمه المحبوب: اسم برجه الفلكي ولونه المفضل، والموسيقى المحببة إلى قلبه، والمطرب الذي يعجبه، وأسماء المطاعم التي كان يتردد عليها،

لتعلم الأجيال القادمة أن الشاعر جلس هنا.. ومرّ من هنالك.. فهوايات (النجم) وعاداته وطقوسه هي ملك للجمهور ومن حقه الاطلاع عليها، فلا غرابة أن يعمل(نزار قباني) على إبقاء اسمه مزروعا في ذاكرة الناس بكل الوسائل التي تتاح له، نذكر منها على سبيل المثال: نشر صوره العائلية والشخصية في العديد من كتبه، أو كتابة إحدى مجموعاته الشعرية بخط يده، أو عن طريق رواية حادثة قديمة من ذكرياته، حتى لو كانت هذه الحادثة أليمة وذات خصوصية عائلية بالغة السرية والحساسية.

يقول نزار قباني:

((أنا من أسرة تمتهن العشق. والحب يولد مع أطفال الأسرة كما يولد السُكَّرُ في التفاحة. في الحادية عشرة من عمرنا نصبح عاشقين، وفي الثانية عشرة نسأم.. وفي الثالثة عشرة نعشق من جديد.. وفي الرابعة عشرة نسأم من جديد.. وفي الخامسة عشرة من العمر يصبح الطفل في أسرتنا شيخا.. وصاحب طريقة في العشق...

جدي كان هكذا.. وأبي كان هكذا.. وأخوتي كلهم يسقطون في أول عينين كبيرتين يرونهما.. يسقطون بسهولة.. ويخرجون من الماء بسهولة.. كل أفراد الأسرة يحبون حتى الذبح.. وفي تاريخ الأسرة حادثة استشهاد مثيرة سببها العشق...

الشهيدة هي أختي الكبرى وصال. قتلت نفسها بكل بساطة وبشاعرية منقطعة النظير.. لأنها لم تستطع أن تتزوج من حبيبها...

صورة أختي وهي تموت من أجل الحب.. محفورة في لحمي.لا أزال أذكر وجهها الملائكي، وقسماتها النورانية، وابتسامتها الجميلة وهي تموت... كانت في ميتتها أجمل من رابعة العدوية.. وأروع من كليوباترا المصرية. حين مشيت في جنازة أختي.. وأنا في الخامسة عشرة، كان الحب يمشي إلى جانبي في الجنازة، ويشد على ذراعي ويبكي.. وحين زرعوا أختي في التراب.. وعدنا في اليوم التالي لنزورها، لم نجد القبر.. وإنما وجدنا في مكانه وردة..)).

ويلجأ شاعرنا الكبير في بعض تصرفاته إلى سلوك الغرابة، لأن الغرابة والخروج عن المألوف يزيد من شهرته عند الناس. من ذلك ما حدث العام /١٩٧٢/ إثر أمسية شعرية صاخبة له في طرابلس الشام. كان الشاعر خارجاً من القاعة والناس

يتدفقون حوله كالسيل، يريدون الوصول إليه بهدف السلام، حين برزت فجأة إحدى الصبايا الحسان، وكشفت عن ساقها أمام الجمهور وطلبت من الشاعر أن يوقع باسمه على ساقها. ولم يرفض الشاعر أو يستهجن هذا الطلب الغريب، بل أبدى تجاوبا ملحوظاً وسعادة فائقة في التوقيع.

وصفوة الكلام- على حد تعبير الدكتور نجم- أن شاعرنا كان واعياً (لأناه) الجسمي، مدركاً لوسامته، محتفلاً بملامحه، يعرف جيداً حسن وقعها في الناس. فاستثمر هذا الشعور في نتاجه متتبعاً قسماته وحركاته وأناقته، وكل ما يتعلق بمظهره أمام المعجبين والأنصار، في أماسيه الشعرية ومقابلاته التلفزيونية وصوره"الفوتوغرافية" المنشورة في الصحف والمجلات...

فأعماله إذن مرتبطة (بأناه الجسمي) قبل كل شيء. غايتها استعراض (نزار قباني) الفتى الوسيم الذي يطمح لتخليد رسمه بين الناس. وهو رسم لشاعر بلغ به الحرص على وسامته حد الهاجس، فأصبح متشبثا بالحب لأنه مرآة تجمّل ملامحه في عين نفسه وعيون الناس.

ونحن إذْ نقدم هذه المختارات الشعرية، ضمن تبويب جديد، فإننا نهدف من وراء عملنا الأدبي المنهجي، تعريف الجيل الجديد وعشّاق أدبه، ضمن إطار المناخ النفسي الذي ظهرت فيه هذه القصائد لأول مرة، على هذا التراث الشعري الخالد والمدهش معاً، لشاعر الشام الكبير، بل لشاعر الأمة العربية.

تأملات في الإسلوب ((النِزاري))

يحدثنا الشاعر نزار قباني عن علاقته بالجمهور حديثا ممتعاً في حوار صحفي أجريته معه، ونشرته بالثمانينات في صحيفة (البعث) بما لفظه:

((... أكتب لكل الموءودات.. والمقموعات.. والمهروسات.. والمذبوحات من الوريد إلى الوريد.. ومن النهد للنهد.. ومن الضفيرة للضفيرة في مسلخ التاريخ. أكتب لأجعل الإنسان يستحق انسانيته.. والوطن يستحق اسمه.. والمرأة تستحق أمومتها.. والأطفال يستحقون طفولتهم.. والحياة تستحق نفسها. والشاعر الذي يخاطب الأمة العربية في هذه المرحلة الحارقة من تاريخنا (بالفوازير) و(الكلمات المتقاطعة) وبلغة سنسكريتية لا يمكن تفكيكها.. هو شاعر هارب من الجندية، ويستحق الحبس في زنزانة مظلمة)).

هذه هي طبيعة نزار قباني الفنية، وهذا هو إحساسه بجمهوره، وهو ما يدفعه دائماً إلى أن يكتب عن قضايا تهم الجميع وتثير الجميع. وإلى أن يكون تعبيره الفني، على جماله، ميسوراً للجميع، على حد تعبير الأديب الناقد رجاء النقاش:

بهروا الدنيا..

وما في يدهم إلاّ الحجارة...

وأضاؤوا كالقناديل، وجاؤوا كالبشارة

قاوموا.. وانفجروا.. واستشهدوا..

وبقينا دُبباً قطبيةً

صُفّحت أجسادُها ضد الحرارة..

آه يا جيلَ الخياناتِ..

ويا جيلَ العمولاتِ..

ويا جيلَ النفايات..

ويا جيلَ الدعارة،،

سوف يجتاحك – مهما أبطأ التاريخ –

أطفالُ الحجارة..

هذا الأمر يجعل من شعر نزار قباني مباشراً، وهنا ينبغي أن نحذر من الوقوع في خطأ شائع، وهو أن كل شعر مباشر هو في نفس الوقت شعر سطحي، فليس الأمر بهذه البساطة مع شاعرنا الكبير، ذلك لأن ميله إلى التعبير المباشر بعيد تماماً عن السطحية، فهو في قصائده الطويلة، على وجه خاص، يبني عمارته الفنية على أسس صارمة، ويستخدم لغة تبدو سهلة يسيرة (السهل الممتنع) وما هي كذلك. وهو يقترب كثيراً من النثر، والاستخدام النثري للألفاظ، إلاّ أنه يعرف معرفة عميقة ذلك الخيط الحريري السحري الرفيع، على حد تعبير النقاش.، فلا يتعداه، وإن تعداه، فإنما يتعداه لصالح الشعر، ولذلك مهما اقتربت من النثر فإنها لا تفقد أبداً روح الشعر المتألقة. والاقتراب من النثر في شعر نزار هو إحدى مهاراته الكبيرة:

إذا سمعنا شاعراً..

يقرأ، في أمسية شعرية، أشعارَهُ

قُلنا له: (أحسنتَ يا مطربنا الكبير)..

إعقد على خَصرِكَ شالاً أحمراً..

وارقص لنا..

آخِرَ ما كتبْتَ.. يا شاعرنا الشهير.

ارقص لنا.. ارقص لنا..

فنحن قومٌ لا يرونَ الفرق

بين دِقَّة الخَصْرِ.. وبين دِقَّة التعبير..

إذا رأينا شاعراً

يفتحُ فوقَ منبر شريانهُ

مبشراً بوردة التغيير

قنا لهُ:

نريدُ أن تسمعنا (طقطوقة) جديدةً

تنقذنا من صحوة الضمير

كأنما وظيفةُ الشاعر

أن يُخدّرَ العقل،

وأن يعطل التفكير..

أو كقوله:

أعترفُ لك يا سيدتي

أنك كنتِ امرأةً استثنائيةْ

وأن غبائي كان استثنائياً...

فاسمحي لي أن أتلو أمامكِ فِعْل الندامة

عن كل مواقف الحكمة التي صدرت عني..

فقد تأكد لي..

بعدما خسرتُ السباقْ

وخسرتُ نقودي...

وخيولي...

أن الحكمة هي اسوأ طبق نقدّمهُ

لامرأة نُحبُّها...

يقول نزار قباني في مقابلة صحيفية أجريتها معه في الثمانينات:

" **أنه قرأ لبودلير، ورامبو، وفيرلين، وفاليري، ولم يحصل على الجنسية الفرنسية**".

غير أننا نستطيع القول، وباطمئنان شديد، أن نزاراً تأثر بعدد من الشعراء الفرنسيين على وجه التحديد، بخاصة وأن ثقافته في بداياته كانت فرنسية، من هؤلاء الشعراء نذكر: **بول إيلوار. جاك بريفير. بول جيرالدي. فاليري.**

وكم هاجرت بعض نصوص هؤلاء إلى ديوان شعره. لنقرأ معاً قصيدة (الحرية) لبول إيلوار، التي ترجمها للعربية الشاعر عبد الوهاب البياتي وزميله أحمد مرسي، ولا سيما المقطع الأول منها:

على دفاتري المدرسية

على منضدتي وعلى الأشجار

على الرمل، وعلى الجليد

أكتب اسمك

على الأيقونات المذهبة

على أسلحة المحاربين

على تيجان الملوك

اكتب اسمك

على الحقول، على الأفق

على أجنحة الطيور

وعلى طاحونة الظلال

اكتب اسمك.

يقول نزار قباني:

كتبت فوق الريح

اسم التي أحبها

كتبت فوق الماء

لم أدر أن الريح

لا تحسن الإصغاء

لم أدر أن الماء

لا يحفظ الأسماء!

وفي قصيدة نزار قباني التي حملت اسم (الجريدة) نلاحظ أن صور القصيدة ومفرداتها، مستمدة من قصيدة (إفطار الصباح) للشاعر جاك بريفير، وعودة للنص الفرنسي، أو للنص المترجم للعربية ضمن منشورات وزارة الثقافة السورية، يثبت صحة ما ذهبنا إليه ضمن ظاهرة هجرة النصوص من شاعر إلى آخر.

يقول نزار قباني:

أخرج، من معطفه الجريدة

وعلبة الثقاب

ودون أن يلاحظ اضطرابي..

ودونما اهتمام

تناول السُكَّرَ منَ أمامي...

ذوّبَ في الفنجان قطعتينْ

ذوَّبني.. ذوّب قطعتينْ

وبعد لحظتينْ

ودون أن يراني

ويعرفَ الشوق الذي اعتراني..

تناول المعطف من أمامي

وغاب في الزحام

مخلّفاً وراءه.. الجريدةْ

وحيدةً

مثلي أنا.. وحيدةْ..

يقول جاك بريفير:

صبَّ القهوة

في الفنجان

صبَّ الحليبَ

في فنجان القهوة

وضع السكّر

في القهوة بالحليب

حرَّك بالمعلقة الصغيرة

شربَ القهوة بالحليب

وحطَّ الفنجانَ

دون أن يكلمني

أشعل سيكارة

عملَ دوائرَ

بالدخان

نفضَ الرمادَ

في المنفضة

دون أن يكلّمني

دون أن ينظر إليَّ

وضع قبعته على رأسه

ارتدى معطف الشتاء

لأن المطر كان يهطل

وذهبَ تحتَ المطر

دون كلام

دون أن ينظر إليَّ

وأنا أمسكتُ

رأسي بيدي

وبكيت[1]

---

(١) كلمات، جاك بريفير، ترجمة وتعليق أ. صياح الجهيم، ص ٢٢-٢٣، منشورات وزارة الثقافة السورية ١٩٩٥

ويلاحظ الناقد محي الدين صبحي في كتابه النقدي (نزار قباني: شاعراً وانساناً) تأثر نزار قباني في ديوانه (أنتِ لي) تأثراً واضحا بديوان (أنتِ وأنا) للشاعر الفرنسي بول جير الدي، إلى درجة فقد معها كثيراً من عفويته نتيجة لتتبعه خطى غيره، حتى أننا نشعر أن الشاعر احترف نظم الشعر، وتكلف في بعض الديوان، نذكر على سبيل المثال لا الحصر مقطعاً من قصيدته التي حملت اسم (كيف كان):

عن حبّنا... كيف كان؟

وكيف نحن استحلنا

حرائقا.. في ثوان

صرنا ضياءً.. وصرنا

في دوزَنات الكمان

فالناس لو أبصرونا

قالوا: دخانٌ الدخان

هل الزمان رآنا

أم نحن أصل الزمانُ

في أي أرض جُمعنا

وأين هذا المكان

هل كان جذعا عتيقا

في غابة السنديان

أم كان منزلَ راع

مسربلا بالأغانْ

ظاهرة أخرى في شعر نزار قباني، وهي دعوته الملحة إلى تحرير المرأة العربية. فما هي نظريته لتحرير المرأة لتأخذ مكانها الطبيعي في المجتمع؟ من المؤسف أنه لم يضع أية نظرية. فهو يرى تحرير المرأة يكمن في ممارسة حياتها الخاصة بكل حرية. الحرية التي يطلبها للمرأة حرية الحب.. وحرية الجنس. إنه بدعوته هذه لتحرير المرأة يكرس النظرة السلفية عن المرأة و يميع قضيتها بل ويقيدها بقيد جديد. ومما يسترعي الانتباه أن شاعرنا حين كتب عن المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد وصف تقاطيع جسدها:

أضواءُ (الباستيل) ضئيلة

وسعالُ امرأةٍ مسلوله

أكلت من رئتيها الأغلالْ

أكَلَ الأنذال..

(لاكوست)، وآلاف الأنذال

من جيش فرنسا المغلوبة

انتصروا الآن على أنثى..

أنثى كالشمعة مصلوبة

القيد يعضُّ على القدمين

وسجائر تطفأ في النهدين

ودمٌ في الأنف...

وفي الشفتين...

وجراحُ جميلةَ بوحَيْردْ

هي والتحرير.. على موعدْ..

مقصلةٌ تُنْصبُ.. والأشرار

يلهون بأنثى دون إزار

وجميلةَ، بين بناَدقهم

عصفورٌ في وسط الأمطار..

الجسدُ الخمريّ الأسمر

تنفضُه لمساتُ التيار

وحروقٌ في الثدي الأيسرْ

في الحَلمةِ..

في..في.. يا للعارْ..

وظاهرة متكررة في شعر نزار، تستحق التأمل، أنه استعار لسان المرأة، فتحدث عن مشاعرها وأحاسيسها، ورغباتها الدفينة، وأهدافها السرية والعلنية:

لا تدخُلي..

وسددتَ في وجهي الطريقَ بمرفقيكْ

وزعمتَ لي..

أنّ الرفاقَ أتوْا إليك؟

أهُمُ الرفاق أتوْا إليك؟

أم أنَّ سيدةّ لديك

تحتلُّ بعدي، ساعديك؟

وصرخت محتدما:

قفي!

والريح تمضغ معطفي

والذلّ يكسو موقفي

لا تعتذر، يا نَذْلُ، لا تتأسّفِ.

أنا لستُ آسفةً عليك..

لكنْ على قلبي الوفي

قلبي الذي لم تعرفِ..

ماذا؟ لو أنكَ يا دَنَي

أخبرتني..

أنّي انتهى أمري لديكْ

لا تعتذر..

فالإثمُ يحصدُ حاجبيكْ

وخطوطُ أحمرها... تصيح بوجنتيك

ورباطُكَ المشدوهُ..

يفضحُ ما لديكَ.. ومَنْ لديكْ

إن نزاراً يحاول أن يصرف ملاحظاتنا عنه، لينفرد بنفسه، لينفرد بكل صغيرة يتأملها، وما أكثر الشؤون الصغيرة التي استطاع نزار أن يحيلها إلى وسط تأملي:

حُلوتي! بالرغم مما قلتُه

فأنا – بعدُ – على حبي القديمِ

داعبي كلّ مساء رقمي

واصدحي مثل عصافير الكرومِ

كلمةٌ منك.. ولو كاذبةٌ

عمرَّت لي منزلاً فوق النجوم

فالشؤون الصغيرة هي دوماً ذلك الوسط التأملي الذي يلوذ به نزار ليتأمل نفسه من خلاله، ومن خلال هذا الصوت الآخر الذي يبدو لنا أنثوياً في كثير من الأحيان. وفي هذا الصدد يقول نزار قباني:

((في العمل الإبداعي، لا أسمح لأي سلطة أن تجلس على أصابعي وتملي عليّ ماذا أكتب.. وكيف أكتب.. فالقصيدة التي لا تستطيع أن تتجول في كل الاتجاهات هي فأرة في مصيدة.. والحرية التي أطلبها للمرأة هي حرية ممارسة خياراتها وإنسانيتها وتركها في مواجهة مسؤولياتها.. والذين يقولون إن حرية المرأة فيها خطورة.. أقول لهم إن حرية الرجل، في سلوكه وممارساته عبر التاريخ كانت أشد خطورة)).

لقد نجح نزار قباني وبمهارة أن يؤسس (بلاغته المعاصرة) التي تختلف عن (البلاغة القديمة) التي تهلل للطباق والجناس، والاستعارة المكنية، فإذا كانت (هذه البلاغة القديمة) تقوم على الفصاحة وغريب القول القاموسي، فإن تلك (البلاغة المعاصرة) تعتمد على تحديث اللغة وطفولية العبارة، وبساطتها، وعمق التجربة وتجذرها في أعماق الوجدان.

محطات في حياة الشاعر نزار قباني

- ولد في دمشق في ٢١ آذار (مارس) سنة /١٩٢٣م/.

- درس في دمشق وتخرج في كلية الحقوق بالجامعة السورية سنة /١٩٤٤م/.

- التحق بعد تخرجه من الجامعة بوزارة الخارجية السورية، وشغل عدداً من المناصب الدبلوماسية في القاهرة، وأنقرة، ولندن، ومدريد، وبكين.

- استقال من العمل الدبلوماسي في ربيع سنة /١٩٦٦م/، وأسس داراً للنشر في بيروت حملت اسمه، متفرداً بذلك لقدره الوحيد: الشعر.

- ركز في بداياته على شعر الحب. وحاول أن يخرج علاقات الحب في المجتمع العربي من مغائر القهر والكبت، إلى ضوء الشمس ومنحها العلنية والشرعية. ابتكر لنفسه لغة خاصة به، تقترب من لغة الحوار اليومي، واتجه بشعره إلى جميع طبقات الشعب العربي، كاسراً بذلك طبقية الثقافة، والاحتكارات الإقطاعية والبرجوازية للشعر، بحيث أصبح الشعر على يده، خبزاً يومياً..

- أكثر الشعراء العرب شعبية وشهرة وانتشارا. وأكثر الشعراء العرب تأثيراً في وجدان مواطنيه.

- كتب الشعر وهو في السادسة عشرة (١٩٣٩م). ومنذ ذلك التاريخ وهو يقاتل حتى يصبح البحر أكثر زرقة وقامة الإنسان أكثر ارتفاعاً.

- انتقل شعره بعد حرب /١٩٦٧/ نقلة نوعية، من شعر الحب إلى شعر السياسة، واستطاع منذ ذلك التاريخ أن يمسك الوردة والمسدس بيد واحدة، ويرسم بصدق وإخلاص كل الحرائق، والزلازل، والأعاصير التي عصفت بالوطن العربي.

- رحل عن عالمنا بتاريخ ٣٠ نيسان سنة /١٩٩٨م/ ودفن بدمشق التي أحبها وأحبته.

نـزار قبـانـي

مختارات شعرية

بلادي

من لثْغَةِ الشحرور، مِنْ

بحَّة نايٍ مُحزِنهْ

مِنْ رجفة الموّال، مِنْ

تنهدَّاتِ المِئذنَه

مِنْ غُيَّمةٍ تحبكُها

عند الغروب المَدْخَنَهْ

وجُرْح قرميد القُرى

المنثورةِ المزيّنةْ

منْ وشْوشَات نجمة

في شرقنا مستوطنهْ

مِنْ قصّة تدورُ

بين وردةٍ.. وسَوْسنَهْ

ومن شذا فلاّحه

تعبقُ منها (الميْجنَهْ)

ومن لهاث حاطبٍ

عاد بفأس مُوهَنَهْ

جبالُنا..مروحةٌ

للشرق، غرقى ليّنهْ

توزّع الخيرَ على الدنيا

ذُرانا المحسَنهْ

يطيب للعصفور،

أن يبني لدينا مسكنهْ

ويغزلَ الصفصافُ

في حضنْ السواقي موطنَهْ

حدودنا بالياسمين

والندى.. محصّنَهْ

ووردُنا مُفَتّحٌ

كالفِكَرِ الملوّنهْ..

وعندنا الصخور تهوى

والدوالي مُدْمِنَهْ

وإن غضبنا.. نزرع

الشمسَ.. سيوفاً مؤمِنَهْ..

بلادُنا كانتْ.. وكانتْ

بعد هذا الأزمِنةْ

لوليتّا

صار عُمْري..

خَمْسَ عَشْرَةْ

صرتُ أحلى ألفَّ مرَّةْ

صارَ حُبّي لك أكبرْ

ألفَ مرَّة

رُبّما.. من سنتيْنْ

لم تكُنْ تهتمُّ في وجهي المدوَّرْ

كان حُسْني بينَ بينْ

وفساتيني تُغطّي الرُكْبَتَينْ

كنتُ آتيكَ بثوبي المَدْرَسِيّ

وشريطي القُرمُزيّ

كانَ يكفيني بأنْ تُهْدي إليَّ

دُمْيةً..

قطعةَ سُكّرْ..

لم أكُنْ أطلبُ أكثرْ.

.. وتطوّر

بعد هذا كلُّ شيْ

لم أعُدْ أقنعُ في قطعة سُكَّرْ

ودُمَىً تطرحُها بين يديّ

صارت اللعبةُ أخطرْ..

ألفَ مرّةْ..

صرتَ أنتَ اللُّعْبَةَ الكبرى لديّ

صار عُمري

خَمْسَ عَشرَةْ..

صارَ عُمْريْ

خَمْسَ عَشْرَة

كلُّ ما في داخلي غنَّى وأزهَرْ

كلُّ شيءٍ صار أخضَرْ

شَفَتي خَوْخٌ.. ويا قوتٌ مُكسّرْ

وبصدري ضحكتْ قبةُ مرمرْ

وينابيعُ.. وشمسٌ.. وصنوبَرْ

صارتِ المرآةُ لو تلمس نهدي تتخدّر

والذي كان سويّاً..

قبل عامينِ.. تدوَّرْ..

فتصوّرْ..

طفلةُ الأمس.. التي

كانت على بابكَ تلعبْ

والتي كانت على حضنكَ تغفو..

حين تـتعبْ

لا تُقدّرْ

صارَ عُمْري

خمسَ عَشْرَهْ..

صرتُ أجملْ

وستدعوني إلى الرقص.. وأقبَلْ..

سوف ألتفُّ بشالٍ قَصَبيْ

وسأبدو كالأميرات ببهوٍ عَرَبيْ

أنتَ بعد اليوم.. لن تخجلَ فيّ

فلقد أصبحتُ أطوَلْ..

آهٍ.. كم صلّيتُ كي أُصبح أطولْ

إصبعاً.. أو إصبعينْ

آه.. كم حاولتُ أن أظهر أكبَرْ

سنةً أو سنتينْ

آه.. كم ثرتُ على وجهي المدوّرْ

وذُؤاباتي، وثوبي المدرسيّ

وعلى الحُبّ بشكلٍ أبويّ..

لا تعاملني.. بشكل أبويّ

فلقد أصبحَ عُمْري..

خمسَ عَشْرهْ[1]

* * *

---

(١) ربما يكون نزار قباني قد أطلق على هذه القصيدة(لوليتا) تيمناً براوية(لوليتا) للكاتب الروسي فلاديمير نابوكوف... وتتحدث هذه الرواية الشهيرة عن قصة حب شاذ بين رجل في الخمسين من عمره وفتاة في الثانية عشرة.

غرناطة

في مدخل (الحمراء) .. كان لقاؤنا

ما أطيب اللُقيا بلا ميعادِ

عَيْنَانِ سوداوانِ.. في حَجَرَيْهما

تتوالدُ الأبعادُ من أبعادِ..

هل أنتِ إسبانيةٌ؟ ساءلتُها

قالت: وفي غرناطةٍ ميلادي

غرناطةٌ ! وصحتْ قرونٌ سبْعَةٌ

في تيْنِيكَ العينين.. بعد رُقاد

وأميَّةٌ راياتُها مرفوعةٌ

وجيادُها موصولةٌ بجيادِ

ما أغربَ التاريخ.. كيفَ أعادني

لحفيدةٍ سمراءَ.. من أحفادي

وجهٌ دمشقيٌّ، رأيتُ خلالهُ

أجفانَ بلقيسٍ، وجيدَ سعادِ

ورأيتُ منزلنا القديمَ، وحُجْرَةً

كانت بها أمّي تمدّ وسادي

والياسمينةَ رُصّعت بنجومها

والبرْكةَ الذهبيَّةَ الإنشاد..

ودمشق.. أين تكون؟ قلتُ تَرَيْنَها

في شَعْرك المنسابِ.. نَهْرَ سواد

في وجهك العربيّ، في الثغر الذي

مازال مُخْتَزناً شموس بلادي

في طيب (جنّات العريف)، ومائِها

في الفُلّ، في الريحان، في الكبّادِ

سارت معي.. والشعرُ يلهثُ خلفَها

كسنابلٍ تُركتْ بغير حصاد..

يتألقُ القِرطُ الطويلُ بجيدها

مثلَ الشموع بليلة الميلاد..

ومشيتُ مثلَ الطفل خلف دليلتي

وورائيَ التاريخُ كَوْمُ رمادِ

الزخرفاتُ.. أكاد أسمعُ نبْضها

والزركشاتُ.. على السقوف تنادي

قالت: هُنا (الحمراءُ).. زَهْوُ جدودنا

فاقرأ على جدرانها أمجادُي

أمجادُها!! ومسحت جرحاً نازفاً

ومسحتُ جرحاً ثانيا بفؤادي

ياليت وارثتي الجميلةَ.. أدركتْ

أن الذين عَنَتْهُمُ أجدادي..

عانقتُ فيها عندما ودّعتُها

رجلاً يُسمّى (طارق بنَ زيادِ).. **

** ﬞ شعر عمر أبو ريشة، ومن قصيدة له بعنوان (ﬞ طائرة) نجد جذور قصيدة (غرناطة). يصدّر عمر أبو ريشة قصيدته بالكلمات التالية: (كان ﬞ رحلة إلى الشيلي، وكانت إلى جانبه حسناء اسبانيولية تحدثه عن أمجاد أجدادها القدامى العرب، دون أن تعرْف جنسية من تحدّث..). ثم يأتي النص الذي هاجر من حيث الموضوع والبناء إلى نص (غرناطة) قصيدة نزار قباني

وثبت تستقربُ النجم مجالا وتهادت تسحب الذيل اختيالا

وحيالي غادة تلعب في شعرها المائج غنجا ودلالا

طلعة ريا وشيء باهر أجمالٌ؟ جل أن يسمى جمالا

فتبسمت لها فابتسمت وأجالتْ فيَّ ألحاظا كسالى

قلتُ يا حسناءُ من أنت؟ ومن أيِّ دوح أفرع الغصن وطالا

فرنت شامخة أحسبها فوق أنساب البرايا تتعالى

وأجابت: أنا من أندلس جنة الدنيا سهولاً وجبالا

وجدودي المح الدهرَ على ذكرهم يطوي جناحيه جلالا

وإذا كانت((فتاة غرناطة)) نزار قباني تفخر بأمجاد أجدادها الذين لا تعرفهم، فإن (فتاة) أبي ريشة على وعي كامل بدور العرب الحضاري، وربما يكون هذا الوعي هو ما حدا بالشاعر إلى أن يتجاهل سؤالها عمن يكون؟ إنها ألقت القفاز في وجهه وطلبت منه أن ينتسب أمامها،إن وعيها بجذورها جعل موقفه على النقيض الذي اتخذ صفة الخطيب ليعدّد، ولو بينه وبين نفسه، أمجاد التاريخ العربي. بقي أن نذكر بأن أبا ريشة كتب قصيدته في العام /١٩٥٣/ بينما نزار قباني كتب قصيدته في الستينات.

انظر مجلة الهلال، يونيو ١٩٩٢ بقلم الأديب أحمد عنتر مصطفى

جمال عبد الناصر

ـ ١ ـ

قتلناكَ.. يا آخرَ الأنبياءْ

قتلناكَ..

ليس جديداً علينا

اغتيالُ الصحابة والأولياءْ

فكم من رسول قتلنا..

وكم من إمامٍ..

ذبحناهُ وهو يصلّي صلاة العشاءْ

فتاريخنا كله محنةٌ

وأيّامُنا كلُّها كربلاءْ..

ـ ٢ ـ

نزلتَ علينا كتاباً جميلاً

ولكنّنا لا نُجيدُ القراءةْ..

وسافرتَ فينا لأرض البراءَه

ولكنّنا.. ما قبلنا الرحيلا..

تركناكَ في شمس سيناء وحدّك[1]

تكلّمُ ربّكَ في الطُور وحدكْ..

وتعرى.. وتشقى..

وتعطشُ وحدَكْ

ونحنُ هنا نجلس القرفصاءْ

نبيع الشعارات للأغبياءْ

ونحشو الجماهيرَ تبناً وقشاً

ونتركُهمْ يعلكونَ الهواءْ..

ـ ٣ ـ

قتلناكَ..

ياجَبَلَ الكبرياءْ

وآخرَ قنديلِ زيتٍ..

يضيء لنا في ليالي الشتاءْ

وآخر سيف من القادسيَّهْ

قتلناكَ نحنُ بكلتا يديْنَا

وقُلنا المنيَّةْ..

---

(١) إشارة إلى حرب ١٩٦٧ مع العدو"الإسرائيلي"

لماذا قبلتَ المجيءَ إلينا؟

فمثلكَ كان كثيراً علينا..

سقيناكَ سُمَّ العروبة حتى شبعتْ..

رميناكَ في نار عمَّان.. حتى احترقتْ

أريناكَ غدرَ العروبة حتى كفرتْ.

لماذا ظَهَرتَ بأرض النفاق..

لماذا ظَهرتْ

فنحن شعوبٌ من الجاهليَّةْ

ونحنُ التقلُّبُ

نحنُ التذبذُبُ

والباطنيَّةْ..

نُبايعُ أربابَنا في الصباح

ونأكلُهُمْ حين تأتي العشيَّةْ..

ـ ٤ ـ

قتلناكَ..

يا حبُنَّا وهَوانا..

وكنتَ الصديقَ، وكنتَ الصدُوقَ،

وكنتَ أبانا..

وحين غسلنا يدينا اكتشفْنَا

بأنَّا قتلنا مُنانا..

وأنَّ دماءكَ فوق الوسادة..

كانت دِمانا

نفضتَ غُبارَ الدراويش عنّا..

أعدتَ إلينا صبانا

وسافرتَ فينا إلى المستحيل

وعلّمتنا الزهْوَ والعنفوانا

ولكننّا..

حين طال المسيرُ علينا

وطالتْ أظافرُنا.. ولحانا

قتلنا الحصانا..

فتبَّتْ يدانا..

أتينا إليك.. بعاهاتِنا..

وأحقادنا.. وانحرافاتـنا..

إلى أنْ ذبحناكَ ذبحاً

بسيف أسانا..

فليتكَ في أرضنا ما ظهرتَ..

وليتكَ كنتَ نبيَّ سوانا

الوصية

ـ ١ ـ

أفتحُ صندوقَ أبي

أُمزّقُ الوصيهْ

أبيعُ في المزاد ما ورثتُهُ:

مجموعة المسابح العاجيَّهْ

طربوشهُ التركيُّ، والجواربُ الصوفيَّهْ

وعلبةُ النشوق، والسماورُ العتيقُ،

والشمسيَّهْ

أسحبُ سيفي غاضباً

وأقطعُ الرؤوسَ، والمفاصلَ المرخيَّهْ

وأهدمُ الشرقَ على أصحابِهِ

تكيَّهً.. تكيَّهْ..

ـ ٢ ـ

أفتحُ صندوقَ أبي

فلا أرى..

إلاّ دراويشَ ومولويَّهْ

والعودَ، والقانونَ، والبشارفَ الشرقيَّهْ

وقصّةَ الزير على حصانه..

وعاطلينَ يشربونَ القهوةَ التركيَّهْ

أسحبُ سيفي غاضباً

وأقتلُ المعلقات العشرَ.. والألفيَّهْ[1]

وأقتُلُ الكهوفَ، والدفوف،

والأضرحة الغبيَّهْ..

ـ ٣ ـ

أفتح تاريخَ أبي

أفتحُ أيَامَ أبي

أرى الذي ليس يُرى:

أدعيةٌ... مدائحٌ دينيةْ

أوعيةٌ... حشائشٌ طبيَّهْ

---

(١) المقصود هنا الفيَّة الإمام ابن مالك في القواعد العربية.

أدويةٌ للقدرة الجنسيَّه

أبحث عن معرفةٍ تنفعني

أبحث عن كتابةٍ

تخصُ هذا العصرَ.. أو تخصُّني

فلا أرى حولي سوى

رملٍ وجاهليهْ.

ــ ٤ ــ

أرفضُ ميراث أبي..

أرفضُ الثوبَ الذي ألبسنَي

وأرفضُ العلمَ الذي علَّمني

وكلَّ ما أورثني..

من عُقَدٍ جنسيَّةْ

أرفضُ ألفَ ليلةٍ

والقمقمَ العجيبَ، والماردَ،

والسجَّادة السحريَّهْ..

أرفضُ سيفَ الدولةِ المغرورَ

والقصائد الذليلةَ الغبيَّهْ

أحرِقُ رسْمَ أسرتي

أحرِقُ أبجديتي

ومن فلسطينَ ومن صمودها

مِنْ طلقات النار في جرودها

مِنْ قمحها المغموسِ بالدمع،

ومِنْ ورودها

أصْنَعُ أبجديَّهْ

ـ ٥ ـ

أدخُلُ مثلَ البرق من نافذة الخليفَةْ

أراهُ لا يزالُ مثلما تركتُهُ

منذ قرونٍ سبعةٍ

مضاجعاً جاريةً روميَّهْ

أقرأ آياتٍ من القرآن فوق رأسِهِ

مكتوبةً بأحرفٍ كوفيَّهْ

عن الجهاد في سبيل الله، والرسُولِ،

والشريعة الحنيفَةْ

أقولُ في سريرتي:

تبارك الجهادُ في النُحُور والأثداء

والمعاصم الطريَّهْ

ياحضرةَ الخليفَهْ

أعبُرُ من سُرادق الحريم كالمنيَّهْ

أمشي على الأبدان، والغلمانِ،

والأساور المرميّهْ

أمشي على

توجُّع الحرير والقطيفَهْ

أدخلُ مثل الموث من نافذة الخليفَهْ

يحسبني مرتزقاً

دَبَّجتُ في مديحة قصيدةً همزيَّهْ

يأمُرُ لي

من بيت مال المؤمنين كلّ ما أطلبُهُ

عباءةً من قَصَبٍ

وساعةً من ذهبٍ

ومن نساء قصره محظيَّهْ

أبصقُ فوق وجههِ

وفوق وجه الدولة العليَّهْ

من أنتَ؟

يا سيَّافُ.. اقطع رأسَهُ

وهاتِ لي الرأسَ على صينيَّهْ

يا ملكَ الزمان.. إن قتلتَني

فمستحيلٌ تقتلُ الحريَّهْ

ـ ٦ ـ

قُمْ يا طويل العُمر ..

من حُجرتكَ الورديَّهْ

وافتحْ شبابيككَ..

للشمس، وللعدل، وللرعيَّهْ

فما رآكَ الشعب من آخر أيّام بني أميَّةْ

هل أنتَ حقّاً من بني أميَّةْ؟

أخرج إلى الشارع يا أميرَنا

واقرأْ..

عن السويس، والأردنّ، والجُولان

والمدائن السبيَّهْ

عن الذينَ يعبرونَ النهرَ..

نحو الضفَّة الغربيَّهْ

هَلْ يا طويلَ العُمْرِ.. في بلاطكمْ

خريطةٌ صغيرةٌ..

للضفَّةِ الغربيَّةْ؟

أَبي

أماتَ أبوكَ

ضلاٌل.. أنا لا يموتُ أبي

ففي البيت منهُ..

روائحُ ربّ، وذكرى نبي

هنا ركنهُ.. تلك اشياؤه

تَفَتّقُ عن ألفِ غصن صبي

جريدتهُ.. تبغُه.. متّكاهُ

كأن أبي، بعدُ، لم يذهبِ..

وصحنُ الرماد.. وفنجانهُ

على حاله بعدُ، لم يُشْرَبِ

ونظّارتاهُ أيسلو الزجاجُ

عيوناً، أشفّ من المغربِ..

بقاياهُ، في الحُجرات الفساحِ

بقايا النسور على الملعبِ..

أجولُ الزوايا عليه، فحيثُ

أمرُّ.. أمرُّ على مُعْشبِ

أشدّ يديه.. أميلُ عليه

أصلّي على صدره المتْعبِ

أبي.. لم يزل بيننا، والحديثُ

حديث القداح على المَشرب

يسامرُنا، فالدوالي الحبالى

تَوالدُ من ثغره الطيّبِ..

أبي، خبراً كان من جنةٍ

ومعنى من الأرحب الأرحبِ

وعينا أبي ملجأ للنجوم

فهل يذكرُ الشرق عيني أبي؟

بذاكرة الصيف من والدي

كرومٌ.. وذاكرةِ الكوكبِ..

* * *

أنا يا صديقةُ مُتعبٌ بعروبتي

ـ ١ ـ

يا تُونُسُ الخضراءُ.. جئتُكِ عاشقاً

وعلى جبيني وردةٌ وكتابُ

إنّي الدمشقيُّ الذي احترفَ الهوى

فاخضَوْضَرَتْ لغنائهِ الأعشابُ

أحْرَقتُ من خلفي جميعَ مراكبي

إنَّ الهوى أن لا يكونَ إيابُ

أنا فوقَ أجفان النساء مكسَّرٌ

قطعاً، فعُمري الموجُ والأخشابُ

لم أنْسَ أسماءَ النساء.. وإنّما

للحُسْنِ أسبابٌ، ولي أسباب

يا ساكناتِ البحر.. في قرْطاجَةٍ

جفَّ الشذا، وتفرّق الأصحابُ

أينَ اللواتي حُبُّهُنَّ عبادةٌ

وغيابُهُنَّ، وقُرْبُهنَّ، عذَابُ

اللابساتُ قصائدي وَمَدامعي

عاتبتُهُنَّ فما أفادَ عِتابُ

أحْبَبْتُهُنَّ، وهُنَّ ما أحْبَبْنَني

وصَدَقْتهنَّ، ووعْدُهُنَّ كِذَابُ

إني لأشعُرُ بالدُوار.. فناهدٌ

لي يطمئنُّ.. وناهدٌ يرتابُ

هل دولةُ الحبّ التي أسَّسْتُها

سَقَطتْ عليَّ.. وسُدَّتِ الأبوابُ

تبكي الكؤوسُ فبعد ثغر حبيبتي

حلَفَتْ بأن لا تَسْكرَ الأعنابُ

أيصدُّني نَهْدٌ تعبتُ برسمِهِ

وتخُونُني الأقراطُ والأثوابُ؟

ماذا جرى لممالكي وبيارقي؟

أدعو ربابَ.. فلا تُجيبُ رَبَابُ

أأحاسبُ امرأةً على نسيانِها

ومتى استقام مع النساء حِسَابُ؟

ماتُبْتُ من عِشْقي.. ولا استغفرتُهُ

ما أسْخَفَ العُشاقَ لوهُمْ تابُوا؟

ـ ٢ ـ

قَمرٌ دمشقيٌّ يسافرُ في دمي

وبلابلٌ.. وسنابلٌ وقبَابُ

الفُلُّ يبدأ من دمشقَ بياضَهُ

وبعطرها تتطيَّبُ الأطيابُ

والماءُ يبدأ من دمشقَ.. فحيثُما

أسندتَ رأسكَ، جدولٌ ينسابُ

والشِعْرُ عصفورٌ يمدُّ جناحَهُ

فوقَ الشآم.. وشاعرٌ جوَّابُ

والحبُّ يبدأ من دمشقَ.. فأهلُنا

عبدوا الجمالَ وذوَّبُوه.. وذابوا

والخيلُ تبدأ من دمشقَ مسارَها

وتُشَدُّ للفتح الكبير ركابُ

والدهرُ يبدأ من دمشقَ.. وعندها

تبقى اللغات وتحفظ الأنسابُ

ودمشقُ تعطي للعروبة شكلَها

وبأرضِها، تتشَكَّلُ الأحقابُ

ـ٣ـ

بدأ الزفافُ، فمن تكونُ مُضيفتي

هذا المساءَ، ومَنْ هو العرَّابُ

أأنا مُغنّي القصرَ... ياقرطاجَةُ

كيفَ الحضورُ؟ وما عليَّ ثيابُ

ماذا أقولُ؟ فمي يفتّشُ عن فمي

والمفردات حجارةٌ وتُرابُ..

فمآدبٌ عربيةٌ.. وقصائدٌ

همزيَّةٌ.. ووسائدٌ وحُبَابُ

لا الكأسُ تنسينا مساحةَ حزننا

يوماً.. ولا كلُّ الشرابِ شرَابُ

من أين يأتي الشعرُ يا قَرْطاجةُ

والله ماتَ.. وعادتِ الأنصابُ

من أينَ يأتي الشِعْرُ؟ حين نهارُنا

قمعٌ، وحين مساؤنا إرهابُ

سَرَقوا أصابعنا.. وعِطْرَ حُرُوفنا

فبأيّ شيءٍ يكتُبُ الكُتَّابُ؟

والحُكْمُ شُرْطيٌّ يسيرُ وراءَنا

سِرَّاً.. فَنَكْهَةُ خُبْزِنا استجوابُ

الشِعْرُ.. رغمَ سياطهمْ وسُجُونِهمْ

مَلِكٌ.. وهُمْ في بابهُ حُجَّابُ

ـ ٤ ـ

من أينَ أدخُلُ في القصيدة يا تُرى؟

وحدائقُ الشعر الجميل.. خرابُ

لم يبق في دار البلابل بُلْبُلٌ

لا البحتريُّ هُنا.. ولا زِرْيَابُ

شُعَرَاءُ هذا اليوم، جِنْسٌ ثالثٌ

فالقولُ فوضى.. والكلامُ ضَبَابُ

يتكلّمونَ مع الفراغ.. فما هُمُ

عَجَمٌ إذا نطَقُوا.. ولا أَعْرابُ

اللاهثونَ على هوامش عُمرِنا

سيَّان إن حَضَروا، وإنْ هُمْ غابُوا..

يتهكَّمُونَ على النبيذ مُعَتَّقاً

وهُمُ على سطح النبيذ ذُبابُ

الخمُر تبقى، إنْ تقادَمَ عَهْدُها

خمراً.. وقد تتغيَّرُ الأكوابُ

ـ ٥ ـ

من أين أدخُلُ في القصيدة يا تُرى؟

والشمسُ فوق رؤوسنا سِرْدابُ؟

إنَّ القصيدة ليس ما كتبتْ يدي

لكنَّها ما تكتُبُ الأهدابُ..

نارُ الكتابة أحرقت أعمارَنا

فحياتنا الكبريتُ والأحطابُ

ما الشعْرُ؟ ما وَجَعُ الكتَابةِ؟ ما الرؤى؟

أولى ضحايانا هُمُ الكُتَّابُ

يُعْطُوننا الفرحَ الجميلَ.. وحظُّهُمْ

حظُّ البغايا.. ما لهُنَّ ثوابُ [1]

يا تونُسُ الخضراءُ.. هذا عالمٌ

يُثري به الأميُّ.. والنصَّابُ..[2]

فمن الخليج إلى المحيط.. قبائلٌ

بَطرَتْ، فلا فِكْرٌ ولا آدابُ

في عصر زَيْتِ الكازِ.. يطلُبُ شاعرٌ

ثوباً، وترْفُلُ بالحرير قِحَابُ!!![3]

ـ ٦ ـ

هل في العُيُون التونسيَّةِ شاطيءٌ

ترتاحُ فوقَ رِمالِهِ الأعصابُ

أنا يا صديقةُ مُتْعبٌ بعُرُوبتي

---

[1] يقول الإمام الشافعي في ديوانه:

تموتُ الأُسْدُ في الغابات جوعاً ولحمُ الضأن تأكله الكلاب

[2] وفي نفس الديوان ورد هذا البيت:

زمــن علا قدر الوضيــع به وغدا الشــريف يـذله شرفه

[3] يقول الإمام الشافعي:

وعبدٌ قد ينامُ على حرير وذو نَسَبٍ مفارِشُهُ الترابُ

فهل العروبةُ لعنةٌ وعِقابُ

أمشي على ورق الخريطة خائفاً

فعلى الخريطة كلُّنا أغرابُ[٤]

أتكلَّمُ الفُصْحى أمام عشيرتي

وأعيدُ.. لكن ما هناكَ جوابُ

لولا العباءات التي التفُّوا بها

ما كنتُ أحسَبُ أنَّهُمْ أعرابُ..

يتقاتلونَ على بقايا تَمْرَةٍ

فخناجرٌ مرفوعةٌ وحِرابُ

قُبُلاتُهمٌ عربيةٌ.. من ذا رأى

فيما رأى، قُبَلاً لها أنيابُ

ـ ٧ـ

يا تونُسُ الخضراءُ.. كأسيَ علْقَمٌ

أعلَى الهزيمة تُشربُ الأنخابُ

وخريطةُ الوطن الكبيرِ فضيحةٌ

---

(٤) الصحيح لفظة غرباء: لأن لفظة الأغراب تأتي بمعنى أبناء الحبشيات والإماء، ممن لم يعترف آباؤهم بهم ولم ينسبوهم.

فحواجزٌ.. ومخافرٌ وكلابُ

والعالمُ العربيُّ.. إمّا نَعْجَةٌ

مذبوحةٌ، أو حاكمٌ قَصَّابُ

والعالمُ العربيُّ يُرهنُ سَيْفَهُ

فحكايةُ الشرف الرفيع سَرَابُ

والعالم العربيُّ يَخْزنُ نفْطهُ[5]

في خِصيتَيه ورَبُّكَ الوهَّابُ

والناسُ قبلَ النفط أو من بعده

مستنزفون، فسادةٌ ودوابُ

ـ ٨ ـ

يا تُونُسُ الخضراءُ.. كيف خلاصُنا ؟

لم يبقَ من كُتُب السماء كتابُ..

---

(٥) على ضفاف الخليج وفي الشارقة إحدى إمارات دولة الأمارات العربية المتحدة، وفي أحد أيام العام ١٩٩٤، كان المشهد رائعاً.. إنه تكريم الفائزين العرب بجائزة سلطان بن علي العويس. وجاء فوز نزار قباني وحصوله على الجائزة وقدرها ١٠٠ ألف دولار مثاراً لجدل بين المثقفين في الأمارات، حيث هاجمته بعض الصحف وطالبته بالتنازل عن الجائزة والرحيل عن بلاد البترول التي هاجمها بعنف في كل مناسبة من شعره السياسي العاصف! ولكن لنتوقف عند رأي اللجنة التي اختارته حيث تم اختياره بناء على ريادته ودوره الشعري وعطائه المستمر على مدى خمسين عاماً، فهو من روّاد التجديد في شعرنا العربي المعاصر.. ولم يفته الالتفات إلى هموم أمته، فعبر بشعر الرفض والمقاومة للكشف عن مهازل حياتنا السياسية- انظر مجلة الهلال. مايو ١٩٩٤ بقلم الأديب عاطف مصطفى.

ماتتْ خيولُ بني أميّةَ كلُّها

خَجلاً وظلَّ الصَرْفُ والإعرابُ

فكأنمَّا كُتُبُ التراث خُرَافةٌ

كُبرى، فلا عُمرٌ.. ولا خطَّابُ

وبيارقُ ابن العاص[٦] تمسحُ دمْعَهَا

وعزيز مصرٍ بالفُصَام مُصَابُ

من ذا يُصدّقُ أنَّ مصرَ تهوَّدتْ

فمُقَامُ سيدنا الحسين يَبَابُ

ما هذِهِ مصرٌ.. فإنَّ صلاتها

عِبْرِيَّةٌ.. وإمامَها كذَّابُ

ما هذه مصرٌ.. فإن سماءَها

صغُرتْ، وإنَّ نساءها أسلابُ

إن جاءَ كافورٌ.. فكم من حاكمٍ

قَهَرَ الشعوبَ، وتاجُهُ قُبقابُ...

---

(٦) هو عمرو بن العاص أحد دهاة العرب.

ـ ٩ـ

بَحْرِيَّةَ العَيْنَيْنِ.. يا قَرْطاجةُ

شاخَ الزمانُ، وأنتِ بَعْدُ شبابُ

هل لي بعرضِ البحر نِصفُ جزيرةٍ؟

أم أنَّ حبّي التونسيَّ سُرَابُ

أنا مُتْعَبٌ.. ودفاتري تَعِبَتْ معي

هل للدفاتر يا تُرى أعصابُ؟

حُزْني بنفْسَجَةٌ يبلّلها النَدَى

وضفافُ جرحي روضةٌ مِعْشَابُ

لا تَعْذُليني.. إنَ كشَفْتُ مواجعي

وجهُ الحقيقةِ ما عليه نِقَابُ

إنَّ الجُنونَ وراءَ نصف قصائدي

أوليس في بعض الجنون صواب؟

فتحملّي غضَبي الجميلَ، فرُبّما

ثارت على أمر السماء هِضَابُ

فإذا صرختُ بوجه من أحبَبتُهُمْ

فلكي يعيشَ الحبُّ والأحبابُ

وإذا قسوتُ على العروبة مَرَّةً

فلقد تضيق بكُحْلها الأهدابُ

فلربَّما تَجدُ العروبةُ نَفْسَها

ويضيءُ في قلب الظلام شِهابُ

ولقد تطيرُ من العُقال حَمَامةٌ

ومن العباءة تطلع الأعشابُ

ـ ١٠ ـ

قرطَاجةُ.. قَرْطاجةُ.. قَرْطَاجةُ

هل لي لصدركِ رَجْعَةٌ وَمَتابُ

لا تغضبي منّي.. إذا غَلَبَ الهوى

إنَّ الهوى في طبعه غلاّبُ

فَذُنُوبُ شِعْري كُلُّها مَغْفورَةٌ

واللّهُ – جلَّ جَلالُهُ – التوَّابُ..(٧)

---

(٧) القصيدة التي ألقاها الشاعر في المهرجان الذي أقامته الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في مدينة تونس بتاريخ ١٩٨٠/٣/٢٢ بمناسبة مرور خمسة وثلاثين عاماً على تأسيس الجامعة العربية.

هوامش على دفتر الهزيمة

ـ ١ـ

لاحَرْبُنَا حَرْبٌ، ولاسَلامُنا سَلامْ

جميعُ ما يَمُرُّ في حياتنا

ليس سوى أفلامْ...

زَواجُنا مُرتجلٌ

وحُبُّنا مُرتجلٌ

كما يكونُ الحُبُّ في بداية الأفلامْ.

وموتُنا مقَرَّرٌ.

كما يكونُ الموتُ في نهاية الأفلامْ.

ـ ٢ ـ

لم ننتصرُ يوماً على ذُبَابةٍ

لكنَّها.. تجارةُ الأوهامْ

فخالدٌ، وطارقٌ، وحمزةٌ،
والزيرُ، والقَعْقَاعُ، والصَمْصَام.

مُكَدَّسون كُلُّهم..

في عُلَبِ الأفْلامْ..

ـ ٣ ـ

هزيمةٌ..

وراءها هزيمةٌ..

وراءَها هزيمةٌ..

كيف لنا أن نربح الحربَ

إذا كان الذين مَثلُوا..

وصوَّروا..

وأخرجو..

تعلَّموا القتالَ في وزارة الإعلامْ؟؟(١)

ـ ٤ ـ

في كلّ عشرينَ سَنَةْ

ياتي إلينا حَاكمٌ بأمرهِ

ليحبسَ السماء في قارُورةٍ

ويأخَذَ الشمس إلى مِنصَّة الإعْدَامْ

---

(١) يبدو أن الشاعر قد نسي الانتصار الكبير الذي حققه العرب على الكيان العبري، في حرب تشرين حيث بددت هذة الحرب العظيمة كل أحلام وأوهام قادة "إسرائيل" في السيطرة على الإرادة العربية.

ـ ٥ ـ

في كُلّ عشرينَ سَنَةْ..

يأتي إليِنا رجُلٌ مُسلَّحٌ

ليذبَحَ الوحدة في سريرِها

ويُجْهضَ الأحلامْ.

ـ ٦ ـ

في كُلَ عشرينَ سَنة

يأتي إليِنا نَرْجسيٌّ عاشقٌ لذاتِهِ

ليدَّعي بأنه المهديُّ، والمنقذُ

والنقيُّ، والتقيُّ، والقويُّ

والواحدُ، والخالدُ،

والحكيمُ، والعليمُ، والقِدّيسُ،

والإمَامْ...

ـ ٧ـ

في كلّ عشرين سَنَةْ

يأتي إليِنا رجلٌ مُقَامِرٌ

ليرهُنَ البلادَ، والعبادَ، والتُراثَ،

والشّروقَ، والغُروبَ،

والأشجارَ، والثمار،

والذّكورَ، والإناثَ،

والأمواجَ، والبحرَ،

على طاولة القِمَارْ..

ـ ٨ ـ

في كُلّ عشرينَ سَنَةْ

يأتي إلينا رجُلٌ مُعَقّدٌ

يحمل في جيوبهِ أصابعَ الألغامْ..

ـ ٩ ـ

ليس جديداً خوفنا

فالخوفُ كان دائماً صديقنا

من يوم كُنّا نُطْفةً

في داخل الأرحامْ.

ـ ١٠ ـ

هل النظامُ، في الأساس، قاتلٌ؟

أم نحن مسؤولونَ

عن صناعةِ النظام؟

ـ ١١ ـ

إنْ رضيَ الكاتبُ أن يكون مَرَّةً

دجاجةً..

تعاشِرُ الدُيُوكَ.. أو تبيضُ أو تَنَامْ

فاقرأ على الكتابة السلامْ...

ـ ١٢ ـ

للأدَبَاء عندنا نقابةٌ رسميَّةٌ

تشبه في تشكيلها

نقابةَ الأغنامْ..[٢]

ـ ١٣ ـ

ثمَّ مُلُوكٌ أكلُوا نساءَهُمْ

في سالف الأيّامْ

لكنمَّا الملوكُ في بلادنا

تعوّدُوا أن يأكلوا الأقْلامْ...

(٢) وردت مفردة أغنام في تراثه الشعري (١١)مرة.

ـ ١٤ ـ

ماتَ ابنُ خلدونَ[٣] الذي نعرُفُهُ

وأصبحَ التاريخ في أعماقنا

إشارةَ استِفهامْ!!

ـ ١٥ ـ

هُمْ يقَطعُونَ النَخْلَ في بلادنا

ليزرَعُوا مكانهُ..

للسيّد الرئيس، غاباتٍ من الأصنامْ!

ـ ١٦ـ

لم يْطلُبِ الخالقُ من عبادِهِ

أن ينحتوا يوماً لهُ

مليون تمثالٍ من الرَّخَامْ!!

ـ ١٧ـ

تقاطعتْ في لحمنا خناجرُ العُروبَهْ

واشتبَكَ الإسلامُ بالإسلامْ...

---

(٣) يعتبر العالم ابن خلدون المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع في العالم، ومن أعظم المؤرخين في العالم. وهو مؤلف كتاب (مقدمة ابن خلدون) الذي يعد بحق من أنفس كتب التراث العربي.

ـ ١٨ـ

بعد أسابيعَ من الإبْحَار في مراكبِ الكلامْ

لم يَبْقَ من قاموسنا الحربيّ

إلاّ الجِلْدُ والعظامْ..

ـ ١٩ـ

طائرةُ (الفانتومِ)..

تَنْقَضُّ على رؤوسنَا

ونحن نَسْتَقوي بزُنَّار (أبي تمَّامْ)!

ـ ٢٠ ـ

الحَرْبُ..

لا تربحُها وظائفُ الإنشاءْ

ولا التشابيهُ.. ولا النعُوتُ.. والأسمَاءْ

مَقْتَلُنا يكمُنُ في لسانِنَا[٤]

فكم دَفَعْنا غالياً ضريبةَ الكلامْ..

---

(٤) يقول المثل العربي القديم: (مقتل الرجل بين فكيه).

ـ ٢١ ـ

من الذي يُنقذُنا من حالة الفِصَامْ؟

من الذي يُقنعُنا بأننا لم ننهزِمْ

ونحنُ كلَّ ليلةٍ..

نرى على الشاشات جيشاً جائعاً.. وعارياً..

يَشْحذُ من خنادق الأعداء (ساندويشةً)

وينحني.. كي يلْثُمَ الأقدام!!

ـ ٢٢ ـ

قد دخلَ القائدُ بعد نَصْرِهِ

لغُرفة الحَمَّامْ..

ونحنُ قد دخلنا

لملجأ الأيتامْ!!

ـ ٢٣ ـ

نموتُ مجَّاناً.. كما الذُّبَابُ في إفريقيا

نموتُ كالذبَّابْ.

ويدخلُ الموتُ علينا ضاحكاً

ويَقْفِلُ الأبوابْ.

نموتُ بالجُمْلة في فراشِنا

ويرفضُ المسؤولُ عن ثلاجة الموتى

بأن يُفَصّلُ الأسبابْ.

نموتُ.. في حرب الإشاعاتِ..

وفي حرب الإذاعاتِ..

وفي حرب التشابيهِ..

وفي حرب الكناياتِ..

وفي خديعة السَّراب.

نموتُ.. مقْهورينَ، منبوذينَ، ملعونينَ..

مَنْسّيينَ كالكلابْ..

والقائد الساديٌّ في مخبئهِ

يُفَلْسِفُ الخَرَابْ..

ــ ٢٤ ــ

مُضْحِكَةٌ مُبْكِيةٌ

معركةُ الخليجْ

فلا النِّصَالُ انكسَرَتْ فيها على النِّصَالْ[٥]

---

(٥) يقول المتنبي:.

فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ ... تكسَّرتِ النصالُ على النصال.

ولا الرجالُ نَازَلوا الرجالْ.

ولا رأينا مرَّةً

أشُورَ بانيبالْ[(٦)]

فكلُّ ما تبقّى.. لمتْحفِ التاريخِ..

أهْرامٌ من النِّعَالْ!!

ـ ٢٥ ـ

في كُلّ عِشْرينَ سَنةْ

يجيئُنا مِهْيَارْ.

يحملُ في يمينه الشَمْسَ،

وفي شماله النَّهارْ.

ويرسُمُ الجنَّات في خيالنا

ويُنْزل الأمطار.

وفجأةً

يحتلُّ جيشُ الُروم كبرياءَنا

وتسقطُ الأسوارُ!!

(٦) من ملوك بلاد ما بين النهرين الأشداء (٦٦٨ - ٦٢٦) قبل الميلاد. عُرف عنه الدهاء والبطش.

ـ ٢٦ ـ

فِي كُلّ عشرين سَنَةً

يأتي امرؤُ القيس[٧] على حصانه

يبحثُ عن مُلكٍ من الغُبَارْ

ـ ٢٧ ـ

أصواتُنا مَكْتُومةٌ

شفاهُنا مختُومةٌ

شُعُوبُنا ليست سوى أصْفَارْ...

إنَّ الجُنُونَ وحدهُ،

يصنعُ في بلادنا القَرَارْ...

ـ ٢٨ ـ

نكِذبُ في قراءة التاريخْ.

نكذَبُ في قراءة الأخبارْ.

ونقلبُ الهزيمةَ الكُبْرى

إلى انتصار!!

(٧) الشاعر الجاهلي المعروف الذي أراد أن يثأر لمصرع أبيه.. وفي الرواية أنه ذهب لملك الروم طلبا للعون، فأهداه حلية مسمومة أودت بحياته.

ـ ٢٩ ـ

يا وَطَني الغارقَ في دمائهِ

يا أيُّها المطعْونُ في إبائِهِ

مدينةً مدينةً..

نافذةً نافذة..

غَمَامةً غَمَامةً..

حَمَامَةً حَمَامةً..

مِئذنةً مِئذنةً..

أخافُ أن أقْرِئكَ السَّلامْ..

ـ ٣٠ ـ

يُسافرُ الخنْجرُ في عُرُوبتي

يسافرُ الخِنْجرُ في رُجُولتي

هل هذه هزيمة قومية؟

أم هذه هزيمتي؟؟

تاريُخنا ليس سوى إشَاعَةْ

ـ ١ ـ

من أينَ يأتينا الفَرَحْ؟

ولونُنا المُفَضَّلُ السوَادْ

نُفُوسُنا سَوَادْ

عُقولُنا سَوَادْ

حتى البياضُ عندنا

يميلُ للسوَاد..

ـ ٢ ـ

من أينَ يأتينا الفَرَحْ؟

وكُلُّ ما يحدثُ في حياتنا

مسلسلُ استبدادْ.

الوطنُ استبدادْ

والهجرةُ استبدادْ.

والصحفُ الرسميةُ استبدادْ

والشرطةُ السريَّةٌّ استبداد.

والزوجةُ استبداد.

وعِشْقُنا لإمرأة جميلةٍ جداً

هو استبداد!!

ـ ٣ ـ

من أينَ يأتينا الفَرَحْ؟

وكلٌّ طفلٍ عندنا

تجري على ثيابهِ دماءُ كَرْبَلاءْ

والفِكْرُ في بلادنا أرْخصُ من حِذَاء

وغايةُ الدنيا لدينا:

الجِنْسُ والنِسَاءْ...

ـ ٤ ـ

من أينَ يأتينا الفَرَحْ؟

ونحنُ، من يوم تخاصَمْنَا

على النسوانِ في غَرْناطَه

تَفككّتْ أَمَّتُنا

وهَرْهَرَتْ دولتُنا.

وطارتِ البلادْ..

ـ ٥ ـ

الشجَرُ الأطولُ في بلادي

شجَرُ الأحقَادْ!!..

ـ ٦ ـ

يُدْهشُني..

بأنَّ كُلَّ امرأةٍ في وطني

تلبسُ في زِفَافِها

ملابسَ الحِدادْ

ـ ٧ ـ

ليسَ لدينا أمَّةٌ خالدةٌ.

أو دولةٌ واحدةٌ

وإنمَّا أفرادْ...

ـ ٨ ـ

هل هذه جرائدٌ نقرؤُها؟

أم أنّها جَنَازةٌ

ودَعْوةٌ للحُزْنِ والحِدَادْ؟؟

ـ ٩ ـ

نصُوصُنا مَنْقُولةٌ

أصواتُنا،

تخرجُ من حناجر الأجداد..

ـ ١٠ ـ

أكرهُ (ألفَ ليلةٍ)

وأكرهُ النومَ كمجذوبٍ

على ذراعِ شَهْرزادْ.

ـ ١١ـ

من أينَ يأتينا الفَرحْ

أطفالُنا ما شاهدوا في عُمْرِهمْ

قَوْسَ قُزَحْ...

ـ ١٢ ـ

من أينَ يأتينا الفَرَحْ

ونحنُ من يوم خرجنا من فلسطينَ

ومن ذاكرة الليمون

والخَوْخِ

تحوَّلنا إلى رَمَادْ..

ـ ١٣ ـ

ونحنُ من يوم تَرَكْنَا

بحرَ بيروتَ..

تَركْنَا خَلْفَنا

أثداءَ أمَّهاتِنا.

ووردَ ذكرياتِنا.

وبيتَ حُريَّاتِنا.

كما تركنَا خَلْفَنا

شهادَةَ الميلادْ..

ـ ١٤ ـ

لقد أكلنا بعضَنَا بَعْضاً

فهل تعذُرُنا

الأسْمَاكُ والجَرَادْ؟

ـ ١٥ ـ

حتى ثيابُ اللهِ في بلادنا

تُبَاعُ بالمزَادْ!!

ـ ١٦ ـ

من أينَ يأتينا الفرَحْ؟

ماطار طيرٌ عندنا

إلاّ انذَبَحْ..

ولا نبيٌّ جاءَنا

إلاّ بأيدينا انذَبَحْ..

ولا أتانا مُصْلِحٌ، أو مُبْدِعٌ

أو كاتبٌ، أو شاعرٌ

إلاّ على وسادَة الشِعْرِ..

انْذَبَحْ...

ـ ١٧ ـ

مُحَرَّمٌ في وطني

تَنَقُّلُ الهواءْ

مُحرَّمٌ

تَنَقُّلُ الكُحْلَة فوقَ أعْيُنِ النِسَاءْ

مُحرَّمٌ تَنَقُّلُ القصيدة..

مُحَرَّمٌ..

تَنَقُّل الأفعالِ، والأسماءْ...

ـ ١٨ ـ

يَرْتَعِبُ الحُكَّامْ

في العالم الثالثِ،

من صوت العصافير

مِنَ ضَوْءِ الأزاهيرِ..

ومن زَقزقَةِ الحَمَامْ.

ويُدْخِلون البحرَ للسجْن

إذا أسرفَ في الكلامْ..

صَعْبٌ على الحُكَّامِ

في عالمنا الثالثِ

أن يُصالحوا الفِكْرَ..

وأن يصادقوا الأقلامْ.

هل يستطيعُ الذئْبُ

أن يُصادِقَ الأغْنَام؟؟

— ١٩ —

في سالفِ الزمانِ كُنَّا

أمَرَاءَ الشِعْرِ

والبيانِ.. والبديع.. والخِطَابةْ

وأصبحتْ مهنتُنا الآنَ..

بأن نفترِسَ الكتابَةْ!!

ـ ٢٠ ـ

أوَّلُ قصرٍ

من قُصورَ العلم والثقافةْ

أسَّسَهُ الخليفَةُ المأمونْ.

وجاء حُكّامٌ إلى بلادنا من بَعْدِهِ..

تخصَّصُوا في مهنة القتل..

وفي هندسةِ السُجُون!!

ـ ٢١ ـ

في زَمَن الطُفُولَة

قرأتُ آلافَ الأقاصيصِ

عن النَخْوةِ..

والنجدةِ..

والعِزَّةِ

والإباءِ، والفداءِ،

والسَخَاءِ، والشَجاعَهْ

ثُمَّ اكتشفتُ عندما دخلتُ في الكُهُولَهْ

بأنَّ نِصْفَ ما قرأتُهُ

في حِصَّة التاريخ،

ما كان سوى إشاعهْ!!

* * *

دفاتر فلسطينية

حين رأيتُ اللّهَ.. في عمَّانَ

مذبوحاً..

على أيدي رجال الباديَة

غطَّيتُ وجهي بيدي..

وصحتُ: يا تاريخُ!

هذه كربلاءُ الثانيةْ...

ـ ٢ ـ

يا مُجْهضي الثورة..

وهي بَعدُ.. في ملابس العروسْ

ياقاتلي الربيع في أوّله..

يا سارقي الشموسْ

هل أنتُمُ – كما أدَّعيتم – عربٌ

أم أنكمُ مَجوسْ

ـ ٣ ـ

كلُّ الكتاباتِ التي اكتبُها..

تغسلها الكآبَةْ

فبعد أن تمزّقتْ دفاتري

صارت فلسطين هي الكتابَةْ..

ـ ٤ ـ

بقَدْر ما يتّسعُ الفداءْ

تتّسع السماءْ..

مساحةُ النصر الذي نطلبهُ..

تكون في مساحة العطاء

ـ ٥ ـ

كلُّ أديبٍ عندنا لا يحملُ الصليبْ

يصيرُ حمّالاً على مرفأ تل أبيب..

* * *

أحمر.. أحمر.. أحمر..

لا تُفَكّرْ أبداً.. فالضوءُ أحمرْ.

لا تُكلّمْ أحداً.. فالضوء أحمرْ.

لا تُجادِلْ في نُصُوص الفِقْهِ، أو في النَحْو، أو

في الصرف، أو في الشعْرِ، أو في النَثْرِ

إن العقلَ ملعونٌ، ومكروهٌ، ومُنْكرْ..

ـ ٢ ـ

لا تُغَادرْ قُنَّكَ المختومَ بالشَمْعِ

فإن الضوءَ أحمَرْ

لا تُحِبَّ امرأةً.. أو فأرةً

إن ضوءَ الحبّ أحمَرْ

لا تضاجعْ[1] حائطاً، أو حَجَراً، أو مَقْعداً..

إن ضوءَ الجنْس أحمَرْ..

---

(١) تكررت هذه المفردة في تراثه الشعري(١٦) مرة حسب دراسة الأستاذ الباحث برهان بخاري.

إبقَ سرِّياً.. ولا تكشفْ قراراتك حتى لذبابة..

ابقَ أميا.. ولاتدخل شريكاً

في الزنى أو في الكتابة

فالزنى في عصرنا أهون من جرم الكتابه

ـ ٣ ـ

لاتُفكّرْ بعصافير الوَطَنْ

وبأشجار، وأنهار، وأخبارِ الوطنْ

لا تفكّرْ بالذين اغتَصَبُوا شمْسَ الوطنْ

إن سيفَ القمع يأتيك صباحاً

في عناوينَ الجريدهْ

وتفاعيل القصيدة

وبقايا قهْوتِك

لا تَنَمْ بين ذراعيْ زوجتكْ

إنَّ زوَّارَك[٢] عند الفجر..

موجودونَ تحتَ الكنَبهْ..

---

(٢) الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل هو الذي ابتكر مصطلح (زوّار الفجر) في مقالاته الشهيرة التي كان ينشرها في الأهرام، حيث انتقد بها بعض تجاوزات الأمن في زمن الرئيس جمال عبد الناصر (انظر كتاب خريف الغضب).

ـ ٤ ـ

لا تُطَالعْ كُتُباً في النقْد أو في الفَلْسَفَةْ

إنّ زُوَّارك عند الفجر،

مزروعُونَ، مثل السُوسَ، في كلّ رُفُوف المكتبةْ

ابْقَ في برميلك المملوء نملاً.. وبَعُوضاً.. وقِمَامَهْ

ابْقَ من رجليكَ مشنُوقاً إلى يوم القيامَه

ابْقَ من صوتكَ مشنُوقاً إلى يوم القيامَهْ

ابقَ من عقلك مشنوقاً إلى يوم القيامَهْ

إبقَ في البرميل حتى لا ترى

وجهَ هذه الأمة المغتصَبَهْ..

ـ ٥ ـ

أنتَ لو حاولتَ أن تذهبَ للسلطان،

أو زوجته، أو صِهره المسؤول عن أمن البلادْ

والذي يأكُلُ أسماكاً.. وتُفّاحاً.. وأطفالاً..

كما يأكُلُ من لَحْم العِبادْ..

لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ..

ـ ٦ ـ

أنتَ لو حاولتَ أن تقرأ يوماً

نَشرةَ الطقس، وأسماءَ الوفيَّاتِ، وأخبارَ الجرائمْ

لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ..

أنتَ لو حاولتَ أن تسألَ عن سعر دواء الرَبْوِ..

أو أحذيةِ الأطفال.. أو سِعْرِ الطماطمْ..

لوجدت الضوءَ أحمَرْ..

أنت لو حاولتَ أن تقرأ يوماً صفحة الأبراجِ..

كي تعرف ما حظُّكَ قبلَ النَفْط، أو حظّكَ بعد النَفْط..

أو تعرفَ ما رقْمك ما بين طوابير البهائمْ

لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ..

ـ ٧ ـ

أنتَ لو حاولتَ أن تبحثَ عن بيتَ من الكرتون يأويكَ..

أوسيدةٍ من بقايا الحرب ترضى أن تُسلّيكَ..

وعن نهدين معطُوبَين..أو ثلاجة مُستعملةْ

لوجدتَ الضوءَ أحمرْ..

أنتَ لو حاولتَ أن تسأل أستاذك في الصف..

لماذا؟

يَتَسلى عربُ اليوم بأخبارِ الهزائمْ؟

ولماذا عربُ اليوم زجاجٌ فوقَ بعضٍ يتكَّسرْ؟

لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ

ـ ٨ ـ

لا تُسافرْ بجواز عربيّ

لا تُسافرْ مرةً أخرى لأوروبَّا

فأوروبّا – كما تعلمُ – ضاقَتْ بجميع السفَهَاءْ

أيُّها المنبوذُ، والمشبوهُ، والمطرود من كل الخرائطْ

أيّها الديكُ الطعينُ الكبرياءْ..

أيَّها المقتولُ من غير قتالٍ

أيَّها المذبوحُ من غير دماءْ

لا تُسافِرْ لبلاد اللّهِ.. إن الله لا يَرضى لقاءَ الجُبَنَاءْ..

ـ ٩ ـ

لا تسافرْ بجواز عربيّْ

وانتظر كالجُرْذِ في كلّ المطاراتِ..

فإنَّ الضوءَ أحمَرْ

لا تقُلْ باللغة الفصحى:

أنا مروان... أو عدنان... أو سَحْبَانُ...

للبائعة الشقراءِ في (هارُودزَ)

إن الاسم لا يعني لها شيئاً..

وتاريخكَ – يا مولايَ – تاريخ مزوَّرْ..

ـ ١٠ ـ

لا تفاخر ببطولاتك في (الليدو)..

فسوزان.. وجانين.. وكوليت

وآلاف الفرنسيات لم يقرأن يوماً

قصةَ الزير وعنتر....!!

فعُدْ فوراً إلى الفندق

إن الضوء أحمر

\- ١١ -

لا تُسَافِرْ بجوازٍ عربيٍّ.. بين أحياءِ العَرَبْ

فهُمُ من أجل قِرْشٍ يقتُلُونَكْ

وهُمُ – حينَ يجُوعُونَ مساءً – يأكلونَكْ

لا تكُنْ ضيفاً على حاتم طيٍّ[٣]

فهو كذَّابٌ ونصَّابٌ..

فلا تخْدَعْكَ آلافُ الجواري..

وصناديقُ الذَهَبْ

\- ١٢ -

يا صَديقي:

لا تَسرْ وحْدكَ ليلاً

بين أنياب العَرَبْ

أنتَ في قومكَ مجهولُ النَسَبَ..

يا صَديقي:

رَحِمَ اللهُ العَرَبْ !!!

(٣) أثار هذا المقطع الشعري، المشاعر العربية والكبرياء القومي، والسخط الشديد على القباني بسبب هجومه على حاتم الطائي، الذي يعد أحد الرموز العربية التراثية، كذلك يعد حالة متميزة في الجود والكرم والمروءة، والمثل الأعلى عند العربي، لذلك فقد اتهم القباني بالشعوبية، وكراهيته للجنس العربي، من قبل شريحة واسعة من الجمهور وبعض النقّاد.

من يوميّات كلبٍ مثقف

مولايَ:

لا أريدُ منكَ ياقُوتاً.. ولا ذَهَبْ

ولا أريدُ منكَ أن تُلبِسَني

الديباجَ والقَصَبْ

كلّ الذي أرجوه أن تَسْمَعني

لأنني أنقلُ في قصائدي إليكْ

جميعَ أصواتِ العَرَبْ

جميعَ لَعْناتِ العَرَبْ..

إن كنتَ – يا مولايَ –

لا تحبُّ الشعرَ والصداحْ

فقلْ لسيَّافكَ أن يمنحني

حُرّيةَ النِبَاحْ[1]

---

(١) هذه النكتة أطلقها أحد الظرفاء أيام حكم المرحوم أديب الشيشْكلي لسورية.. تقول النكتة: أن كلبا هرب من سورية إلى لبنان! وحين استفسرت منه الكلاب عن سبب قدومه الميمون أفاد بمايلي: ما جئتُ بحثا عن



العظم، وإنما لأعوي لي كَمْ تعواية بحرية ودون ازعاج. (انظر كتابنا عن أديب الشيشكلي صاحب الانقلاب الثالث).

مواويلُ دمشقية إلى قمر بغداد

أَيْقَظَتْني بلقيسُ في زُرقَة الفجْر

وغَنَّتْ من العراق مقاماً

أرْسلَتْ شَعْرَها كنَهْر(ديَالي)

أرأيتُمْ شَعْراً يقولُ كلاماً؟

كان في صَوْتِها الرصافَةُ والكَرْخُ

وشَمْسٌ.. وحِنْطَةٌ وخزامى

حَملَتْ لي جرائدَ اليوم، والشايَ،

وفاضَتْ أمُومةً وابتساما

مالها زوجتي تُطارحني الحُبَّ؟

وكان الهوى علينا حَرَامَا

لكَ عندي بِشَارةٌ يا حبيبي

فَعلَ القومُ ما فعلنا تماما

ذكَّروني – قالتْ – بليلة عُرْسي

ورفيفِ المُنَى، وظُرْف النَدامى

قبل عصر التوحيد نحنُ اتّحدْنَا

وجعلنا(راوا) دِمَشْقَ الشاما

أَخَذوا الحُبَّ، والصبابةَ عنَّا

ونسُوا أنّنا اخترعنا الغرَاما

إنْ يكونوا تعلَّموا لُغَةَ العِشْقِ

فنحنُ المتيَّمونَ القُدامَى

إلتزامي أنا.. بوجه حبيبي

أوَ ليس الحبُّ الكبيرُ التزاما؟

تُهْمةُ الحُبّ لا تزال ورائي

لا رآني رَبيّ أَرُدُّ اتّهَامَا

وتَزَوَّجتُ زوجتي من جديدٍ

وضحِكْنا.. وقبْل كنّا يَتَامى

يا شراعاً وراءَ دَجْلَةَ يجري[1]

اقترِبْ.. إنني أموتُ هُياما

لي على الشطِّ نَخْلَةٌ يتمَثْني

---

(١) يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في رائعته التي غناها بين يدي ملك العراق فيصل الأول الموسيقار محمد عبد الوهاب بمناسبة زيارته للبلاد في سنة ١٩٣١:

يا شراعاً وراءَ دِجلةَ يجري   في دموعي تجنبتكَ العوادي

ويبدو أن القباني قد أعجبه هذا المطلع الشعري فضمنه قصيدته

بهواها.. فاقرأ عليها السَلاما

كيف أنسى في (الأعظميَّةِ) ظبياً

أشْعَلَ النار في دمائي.. وناماَ

تلك بغدادُ.. بعد عَشْر سنينَ

تلبسُ الماءَ والنجومَ حِزاماً

دَجلةٌ عاشقٌ يزورُ دمَشْقاً

وكريمٌ أتى يزور كِرامَا..

إنَّ كفَّ المأمون[٢] في كفّ مَروَانَ[٣]

وماءُ الفراتِ صار مُدامَا

ليلةُ القَدْر، ما أراه أمامي،

أم يكونُ الذي أراه مناما

بابلٌ ضوَّأتْ.. وقبرُ عليٍّ

تركَ الأرضَ، واستحالَ غماما

إنتظرنا هذا الزفافَ طويلاً

وشربنا دموعُنا أعواما

---

(٢) هو الخليفة العباسي المأمون(٨١٣-٨٣٣م). كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال. نشطت في عصره الترجمة للغة العربية. وقرب أهل الحكمة والشعراء إليه. وكان يميل إلى الإقناع في الجدل والمناقشة.

(٣) هو الخليفة الأموي مروان بن الحكم. وكان من ذوي الرأي والفصاحة والشجاعة. وإليه يرجع الفضل في ضبط المقاييس والموازين، حتى لا يقع الغبن في البيع والشراء.

لا بريدُ المحبوب يأتي إليْنَا

لا ولا النومُ قابلٌ أن ينامَا

حُلمٌ مُدْهِشٌ.. أخافُ عليهِ

فَلَكَمْ كسَّروا لنا أحلاما

بَرَدَى... يا أبا النُهور جميعاً

يا حصاناً يُسابق الأياما

كُنْ بتاريـخنا الحزين نبيّاً

يتلقَّى من ربّهِ الإلـهاما

الملايينُ بايَعَتْكَ أميراً

عربياً.. فصلّ فيها إمّاما

وتَزوّجْ نَخْلَ العراق.. وأنجبْ

خالداً ثانياً[٤].. وانْجِبْ هشامَا[٥]..

ياعُيُونَ المَها ببادية الشام

أطلّي.. هذا زمانُ الخزَامى

حَبسُوكُنّ في الخيام طويلاً

فَغَزلنَا من الدُموع خياما

---

(٤) هو الفارس العربي خالد بن الوليد.

(٥) هو الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣) اشتهر بالتدبير وحسن السياسة، واهتمامه بالخيل

واسْتَردّوُا (الجسْرَ المُعلَّقَ) مِنَّا

واسْتَردّوا الغُروبَ والأنساما

شَهِدَ اللهُ، ما حَنَثْنَا بوعدٍ

أو خَفَرنا لمن نُحِبُّ الذِمَامَا

غيرَ أنَّ الرياحَ هبَّتْ علينا

ورَمتْنَا على الخليج حُطَاما

علَّمُونا أن لا نحبَّ فخْفْنَا

لوفَعَلْنا، أن تستحيلَ رُخاما

واعْتَذَرْنا عن أيّ حُبّ بديلٍ

ورفضْنَا التخويفَ والإرغاما

كلُّ هذا الخصام، كان افتعالا

حين يقوى الهوى يصيرُ خِصاما..

ياشَذَا (الرازِقيّ) في ليل بغدادَ

عَشِقْنَا.. فَمَنْ يردُّ السِهاما

يا سؤالَ الوردِ الدمْشقيّ عنّي

ياحقولاً، ركضتُ فيها غُلامَا

سَنَواتٌ عَشْرٌ.. نسيتُ حُروفي

و دواتي، كما نسيتُ الكلاما

ما كتَبْنَا.. وكيف يكتُبُ شِعْراً

مَنْ يُعاني تمزُّقاً وانفِصَاما؟

سامحَ اللهُ مَنْ على غير قَصْدٍ

سرقوا من طُفُولتي أعواما

لي حبيبانِ يملئان حياتي

أتعَباني تنافُراً وانسِجَاماً

لم نُفَرِّقَ ما بين شعبٍ وشعبٍ

كيف يرضى لونُ السماء انقساما؟

وَطَنٌ واحدٌ.. رَسَمْنَاهُ قمْحَاً

ونخيلاً، وأنْجُماً، ويَمَاما

نَيْنَوى.. البُوكمال.. طرطوسُ.. حِمْصٌ

بابلٌ، كَرْبَلاءُ، رُدّي السلاما

وَطَنٌ واحدٌ.. ولا كان شِعْري

لو يُغنّي قبيلةً.. أو نظامَا.

هل أتَتْكَ الأخبارُ يامُتَـنبـيّ

أنّ كافورَ[٦] فكّكَ الأهراما

---

(٦) هو أبو المسك كافور حاكم مصر لسنوات طويلة. وكانت له طريقة ذكية في التعامل مع خصومه، تتجلى في ميله إلى الدهاء والسرية في تصرفاته فلم يصمد له خصم... فلماذا لم ينصفه التاريخ؟ كان لذلك سببان: سواد لونه وهجاء الشاعر المتنبي له. فقد هجاه بأربع: سواد لونه، عبوديته، وبخله، ونسبه.

سَقَطَتْ مِصْرُ في يَدَيْ قُرويّ

لم يَجِدْ ما يبيع إلا (الثُرامَا)..

مَسْرَحيٌّ الطموحِ، يلبس وجهاً

للكوميدْيَا.. وثانياً للدِرَاما

هو فاروقُ.. شهوةً، وغُروراً

والخديوي.. تسلّطاً وانتقاما

وَعَدَ الناسَ بالرحيقِ وبالشَّهْدِ

ولكنْ سَقَاهُمُ الأوهاما

سَاقَ من فكَّروا لمحكمة الأمنِ

وألغى المدادَ والأقلاما..

وَظَّفَ النيلَ مُسْتَشَاراً لديهِ

والملايينَ، ساقَها أغْنَاما

أضْرَمَ النارَ في منازل عَبْسٍ

وتميمٍ، وأنْكَرَ الأرْحَاما

عصبيٌ.. يصبحُ في مصرَ كالديكِ..

وفي القُدس يمسحُ الأقدَامَا

جَرَّدوهُ من كلّ شيءٍ.. ولَّما

استَهْلَكُوهُ، ألقوا إليه العِظَامَا[٧]

غيَّرَ الثائرونَ خارطةَ الأرضِ

وشدُّوا من حولها الألغاما

واسْتَفَقْنا مع الذين استفاقُوا

فامنحونا حُرِيَّةً.. وطعاما

لم تُغيِّرْ حضارةُ النفْطِ ظفراً

من أظافيرنا.. ولا إبهَامَا

قد حَبلْنا بالنفْطِ.. دونَ زواجٍ

ووضعنا، بعد المخاض سُخَاما..

أيَقَظَتْني بلقيسُ في زُرْقةِ الفجر

وغَنَّتْ من العراق مَقَاما

أرْسلَتْ شَعْرَها كنهر (ديالَي)

أرأيتُمْ شَعْراً يقولُ كلاما؟

كانَ في صوتها الرَصَافَةُ والكَرْخُ

وشَمْسٌ.. وحِنْطةٌ.. وخُزامى

لن يكونَ العراقُ إلاّ عراقاً

وهشامُ العظيمُ يبقى هِشاما

---

(٧) يصب جام غضبه على الرئيس الراحل محمد أنور السادات بسبب توقيعه معاهدة الصلح المنفرد – آنذاك- مع الدولة العبرية العنصرية.

حوارٌ مع عربي أضاع فرسه

لو كانتْ تسمعني الصحراءْ

لطلبتُ إليها..

أن تتوقفَ عن تَفرْيخ ملايين الشعراءْ

وتُحرّرَ هذا الشعبَ الطيّبَ من سيف الكَلماتِ..

مازلنا منذ القرن السابع نأكُلُ أليافَ الكَلِماتْ

نتزحلق في صمغ الرءاتْ

نتدحرجُ من أعلىَ الهاءاتْ

وننامُ على هجو جريرٍ[1]..

ونفيقُ على دمع الخَنساء[2]

مازلنا منذُ القرن السابعِ..

خارج خارطة الأشياء

نترقَّبُ عَنترةَ العَبْسيَّ

---

(١)جرير: هو أبو حَزْرَة جرير بن عطية بن حذيفة الملقب بالخطفي. شاعر إسلامي ولد باليمامة نحو سنة /٦٥٣-٧٣٣م/ شبت بينه وبين الشاعر الفرزدق نيران التهاجي المرير.

(٢) الخنساء: شاعرة الرثاء ولدت في العصر الجاهلي نحو سنة /٥٧٥-٦٦٤م/ ونشأت في بيت نفوذ وثروة. ثم قُتل أخواها معاوية وصخر فجزعت عليهما جزعاً شديدا ورثتهما بشعرها.

يجيءُ على فَرَسٍ بيضاءْ..

ليفرّجَ عنّا كُرْبَتَنَا

ويرُدَّ طوابيرَ الأعداءْ..

مازلنا نقضُمُ كالفئرانِ..

مواعظَ سادتنا الفُقَهاءْ

نقرأ (معروفَ الاسكافيَّ)[1]

ونقرأ (أخبارَ النُدَماءْ)..

ونُكَاتِ جحا..

و(رجوعَ الشيخ)[2]

وقصة (داحسَ والغبْرَاءْ)..

يا بَلَدي الطيّبَ يا بلدي..

الكِلْمةُ كانتْ عُصفُوراً

وجعلنا منها..

سُوقَ بَغَاءْ..

---

(١) بطل حكاية وردت في كتاب ألف ليلة وليلة.

(٢) المقصود هنا كتاب رجوع الشيخ إلى صباه وهو من الكتب الجنسية القديمة في دنيا العرب.

ـ ٢ ـ

لو كانت نَجْدٌ تسمَعُني

والربْعُ الخالي يسمَعُني

لختمتُ أنا بالشمع الأحمر سوقَ عُكَاظْ

وشَنَقْتُ جميع النجَّارين..

وكُلَّ بياطرة الألفاظ

مازلنا منذُ ولادتنا

تسْحُقُنا عَجلاتُ الألفاظْ

لو أُعطى السُلطةَ في وطني[1]

لقلعتُ نهارَ الجُمعةِ أسنانَ الخطباء

وقطعتُ أصابعَ من صبغوا بالكِلْمةِ أحذيةَ الخُلَفَاء

وجلَدْتُ جميعَ المنتَفعينَ بدينارٍ..

أو صحن حِسَاءْ

وجلَدْتُ الهَمزَةَ في لغتي..

وجلَدْتُ اليَاء..

---

(١) تظهر هنا النرجسية، وتوثين الذات وتقديسها، واستبدادية الاتجاه، في شخصية الشاعر. للتوسع انظر كتاب (النرجسية في أدب نزار قباني) للدكتور خريستو نجم.

وذبحتُ (السينَ).. و (سوفَ)..

و(تاءَ التأنيثِ) والخطَّ الكوفيَّ[2]

وكُلَّ ألاعيب البُلَغَاءْ

وكَنَسْتُ غُبارَ فصاحتِنا

وجميعَ قصائدنا العصماءْ..

كيف تموتُ الخَيْلُ

ولا يبقى إلاّ الشُعَراءْ؟؟

ـ ٣ ـ

لو أُعْطى السُلْطَةَ في وطني

أعدمتُ جميعَ المنبطحينَ على أبواب مقاهينا

وقَصَصْتُ لسان، مُغَنّينَا

---

(٢) يقول الشاعر العربي الكبير مظفر النوّاب في قصيدته الرائعة (وتريات ليلية الحركة الأولى) مخاطبا الخط الكوفي بحنان وشفافية، على عكس الشاعر القباني، الذي يريد ذبح الخط الكوفي دون رحمة، لسبب نجهله: يقول النوّاب: احمل لبلادي

حين ينام الناس سلامي

للخط الكوفي يتم صلاة الصبح

بإفريز جوامعها

لشوارعها

للصبر...

وفَقأت عيون القمر الضاحك من أحزان ليالينا

وكَسَرتُ زُجَاجَتَهُ الخضراءْ

وأرحتُكَ يا ليلَ بلادي

من هذا الوحش الآكِلِ من لحم البُسَطَاءْ..

ـ ٤ ـ

يا بلَدي الطيّبَ.. يا بلَدي

لو تنشَفُ آبارٌ البترول، ويبقى الماءْ

لو يُخصى كلٌّ المنحرفينَ..

وكلٌّ سماسرة الأثداءْ

لو تُلغى أجهزة التكييفِ من الغُرَف الحمراءْ

وتصيرُ يواقيتُ التيجانِ

نِعَالا في قدم الفقراء..

لو أملك كرباجا بيدي..

جرَّدْتُ قياصرةَ الصحراء من الأثواب الحضّريَّةْ

ونَزَعْتُ جميعَ خواتمهمْ

ومَحَوْتُ طلاءَ أظافرهمْ

وسَحَقْتُ الأحذيةَ اللمَّاعةَ..

والساعاتِ الذهبيَّهْ

وأَعدْتُ حليبَ النوق لَهُمْ

وأعدْتُ سروجَ الخَيْل لُهُمْ

حتى الأسماءَ العربيَّةْ..[1]

ـ ٥ ـ

لو يَكتُبُ في يافا الليمونُ لأرسلَ آلاف القُبُلاتْ

لو أنَّ بحيرة طبريّا تعطينا بعضَ رسائِلها..

لاحترقَ القارئُ والصفحاتْ..

لو أن القدسَ لها شفةٌ، لاختَنَقَتْ في فمها الصلوات

لو أنَّ..

وما تُجْدي (لو أنَّ) ونحن نسافرُ في المأساةْ

ونَمُدُّ ليافا منديلاً طُرِّزَ بالدمع.. وبالدَعَواتْ

يا بَلَدي الطيبَ.. يا بلدي

ذَبَحتك سكاكينُ الكلماتْ

---

(١) على الرغم من هجومه الشديد على عرب النفط، فقد قبل القباني جائزة مالية، من الثري والشاعر الإماراتي سلطان العويس، وقدرها مائة ألف دولار. وأصيب أهالي الإمارات العربية المتحدة بالذهول والحيرة، وهم غير مصدقين أن القباني قد أتاهم، بالرغم من أشعاره القاسية التي قالها بحقهم، والتي يبدو أنها قد خدشت كرامتهم.

دعوةُ اصطياف للخامس من حزيران

سَنَةٌ خامسةٌ تأتي إلينا..

حاملاً كيسَكَ فوق الظهر.. حافي القَدميْنْ

وعلى وجهكَ أحزانُ السمواتِ..

وأوجاعُ الحُسَيْنْ..[1]

سنلاقيك على كلّ المطارات بباقات الزهورْ

وسنحسو – نَخْبَ تشريفِكَ – أنهارَ الخمورْ

سَنُغنِّيكَ أغانينا.. ونلقي

أكذبَ الأشعار ما بينَ يَدَيكْ

وستعتادُ علينا..

مثلما اْعتَدْنا عليك..

---

(١) هو الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وأمه السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. ولد بالمدينة المنورة في السنة الثالثة للهجرة، واستشهد في معركة كربلاء المشهورة، السبت العاشر من محرم الحرام سنة /٦١هـ/.

ـ ٢ ـ

نحنُ ندعوكَ لتصْطَافَ لدْينا

مثلَ كُلّ السائحين

وسنُعطيكَ جَنَاحاً ملكيَّاً

لكَ جهّزناهُ من خمس سنين

سوف تستمتعُ بالليل.. وأضواء النيُون

وبرقص (الجيرك) و(الجاز) وأفلام الشذوذْ

فهنا..

لا نعرف الحزنَ، ولا مَنْ يحزنُونْ..

سوفَ تلقى في بلادي ما يُسرُّكْ

شِقققاً مفروشةً للعاشقين

وكؤوساً نُضّدَت للشاربينْ

وحريماً لأمير المؤمنينْ!!

فلماذا أنتَ مكسورُ الجَنَاحْ؟

أيُّها الزائرُ ذو الوجه الحزين

ولدينا الماءُ..

والخُضْرَةُ..

والبيضُ الملاحْ..

فلماذا تتردَّدْ؟

سوفَ نُنْسيك فلسطينَ...

ونستأصِلُ من عينيكَ أشجار الدُموعْ

وسَنُلغي سورة (الرحمن)..

و(الفتح)

ونغتالُ يُسوَعْ

وسنُعطيكَ جوازاً عربيّاً

شُطِبَتْ منه إشاراتُ الرُجوعْ...

ـ ٣ ـ

سَنَةٌ خامسةٌ..

سادسةٌ..

سابعةٌ..

ثامنةٌ..

تاسعةٌ..

عاشرةٌ..

ما تهُمُّ السَنَواتْ؟

إنَّ كلَّ المُدن الكبرى من النيل إلى شطِّ الفرات

مالها ذاكرةٌ أو ذكرياتْ..

كلٌّ من سافر في التيهِ، نسيناهُ..

ومَنْ قد ماتَ ماتْ..

ما تُهمُّ السَنَواتْ؟

نحنُ أعددنا الأكاليلَ، وهيأنا المناديلَ

وألفَّنا جميعَ الكَلِماتْ.

ونَحَتَنا قبل أسبوعٍ رُخَامَ الشاهداتْ

أيُّها الشرقُ الذي يأكلُ رُخَامَ الشاهداتْ

أيُّها الشرقُ الذي يأكلُ أوراق البلاغاتْ

ويمشي –كخروف – خلف كلّ اللافتاتْ

أيُّها الشَرْقُ الذي يكتُبُ أسماء ضحاياهُ

على وجه المرايا..

وبُطون الراقصاتْ

ما تُهمُّ السَنَواتْ؟

ما تهُمُّ السَنَواتْ؟

الحبُّ والبترول

ـ ١ ـ

متى تَفْهَمْ؟

متى يا سيّدي تَفْهَمْ

بأني لستُ واحدةً

كغيري، من صديقاتِكْ

ولا فَتْحاً نسائياً يضاف إلى فتوحاتكْ

ولا رقماً من الأرقام.. يعبُرُ في سِجِلاَّتِكْ

متى تَفْهمْ؟

ـ ٢ ـ

متى تفَهمْ؟

أيا جَمَلاً من الصحراء لم يُلْجَمْ..

ويا منْ يأكُلُ الجُدَرِيُّ منكَ الوجهَ والمِعْصَمْ..[١]

بأنيّ لن أكونَ هنا..

رماداً في سجاراتِكْ

ورأساً.. بين آلاف الرؤوس على مخدراتِكْ

وتمثالا تزيدُ عليه في حُمَّى مزاداتِكْ..

ونهداً فوق مرمرِهِ .. تسجّلُ شكلَ بصماتِكْ

متى تفهَمْ

ـ ٣ ـ

متى تفهَمْ؟

بأنّك لن تُخَدّرني..

---

(١) اعتمد هنا على التصوير الواقعي الحسي، وعلى الهجاء الجسماني، الذي يصيب في الصميم، بقصد التشفي والانتقام، فكان هذا الهجاء من النوع الجارح، الذي قد يرسم ابتسامة باهتة على وجه المتلقي.

بجاهك أو إماراتِكْ

ولَنْ تتملَّك الدُنيا..

بنفطكَ.. وامتيازاتِكْ

وبالبترول، يعبَقُ من عباءاتكِ

وبالعَرَبات تطرحُها على قدَميْ

بلا عَدَدٍ.. فأينَ ظهور ناقاتِك؟

وأينَ الوَشْمُ فوق يديْكَ

أينَ ثُقُوبُ خَيْماتِكْ؟

أيا مُتَشَقَّقَ القدميْنِ[٢].. يا عَبْدَ انفعالاتِكْ

ويا مَنْ صارت الزوجاتُ بعضاً من هوايا تِكْ

تُكدّسُهُنَّ بالعشرات فوق فراش لذّا تِكْ..

تُحنّطُهُنَّ كالحشرات..

في جدران صالاتِكْ..

متى تَفْهَمْ

(٢) عودة ثانية إلى الهجاء الجسماني.

ـ ٤ ـ

متى يا أيُّها المتْخَمْ

متى تَفْهَمْ؟

بأنيّ لستُ من تَهْتَمْ

بنارِكَ أو بجنّاتِكْ

وأن كرامتي أكْرَمْ

من الذَهَب المكدَّس بين راحاتِكْ

وأن مناخَ أفكاري، غريبٌ عن مناخاتِكْ

أيا مَنْ فرَّخَ الإقطاعُ في ذرّات ذرّاتِكْ

ويا مَنْ تخجلُ الصحراءُ حتى من منادِاتِكْ

متى تَفْهَمْ؟

تَمرَّغْ يا أميرَ النفطِ..

فوقَ وُحُول لذَّاتِكْ

كمِمْسَحَةٍ..

تمرَّغْ في ضلالاتكْ

لكَ البترولُ فاعصُرْهُ

على قَدَمَيْ خليلاتكْ

كهوفُ الليل في باريسَ قد قَتَلَتْ مُرُوُءاتِكْ..

على أقدام مومسةٍ هناكَ..

دفنت ثاراتكْ..

فبعتَ القدْسَ..

بَعْتَ اللّهَ..

بعْتَ رمادَ أمواتِكْ

كأنَّ حِرابَ إسرائيل لم تُجهِض شقيقاتِكْ

ولم تهدُم منازلنا..

ولم تُحْرِقْ مصاحفنَا..

ولا راياتُها ارتفعتْ..

على أشلاء راياتِكْ..

كأنَّ جميعَ مَنْ صُلِبُوا..

على الأشجار في يافا.. وفي حيفا..

وبئر السَبْع.. ليسوا من سُلالاتِكْ

تغوصُ القدس في دمها،

وأنتَ صريعُ شهْواتِك

تنامُ.. كأنما المأساةُ ليست بعضَ مأساتِكْ

متى تَفْهَمْ؟

متى يستيقظ الإنسانُ في ذاتكْ؟

الاستجواب

ـ ١ ـ

من قَتَلَ الإمامْ؟

المخْبرونَ[1] يملأونَ غرفتي

مَنْ قَتَلَ الإمام؟

أحذيةُ الجنود فوقَ رقْبتي

مَنْ قَتَل الإمامْ؟

مَن طعنَ الدرويشَ صاحبَ الطريقَةْ

ومزَّقَ الجُبَّةَ.. والكشكول والمسبحة الأنيقة

يا سادتي:

لا تقلعوا أظافري.. بحثاً عن الحقيقةْ

في جُثَّة القتيل.. دوماً تسكُنُ الحقيقَة.

---

(١) لعلّ الشاعر الكبير الأستاذ مظفر النوّاب،هو الشاعر العربي الوحيد، الذي تمكن وبفنية عالية، من رصد أنموذج (المخبر) ونفسيته، في قصيدته الشهيرة التي حملت اسم: (ما هم.. ولكنه العشق) المنشورة في كتاب ((مظفر النوّاب بين الجرح والعراقي ونهر الأسئلة)). لمؤلفه هاني الخيّر والصادر في دمشق.

ـ ٢ ـ

مَنْ قَتَل الإمامْ

عساكرٌ بكامل السلاح يدخلُونْ

عساكرٌ بكامل السلاح يخرُجُون

محاضرٌ..

آلات تسجيل

مصوّرون..

يا سادتي:

ما النفعُ من إفادتي؟

مادمتُمُ ـ إن قلتُ أو ما قلت –

سوف تكتُبُونْ..

ما تنفع استغاثتي؟

ما دمتمُ – إن قُلتُ أو ما قلْتُ –

سوف تضربونْ

مادمتُمُ .. منذ حكمتمْ بلَدي

عنِّي تفكرّونْ..

ـ ٣ ـ

لستُ شُيُوعيّاً – كما قيلَ لكُمْ –

يا سادتي الكرامْ

ولا يمينيّاً – كما قيلَ لكُمْ –

مَسْقَطُ رأسي في دمشقَ الشامْ

هل واحدٌ من بينكمْ؟

يعرفُ أينَ الشامْ؟

أدمنَ سُكْنى الشامْ

رَوَاهُ ماءُ الشامْ

كَواهُ عِشْقُ الشامْ

تأكَّدوا يا سادتي..

لن تجدّوا

في كلّ أسواق الورود وردةَ كالشامْ

وفي دكاكين الحُلى جميعِها

لؤلؤةً كالشامْ

لنْ تجدوا..

مدينةً حزينة العَيْنَيْنِ.. مثلَ الشامْ

ـ ٤ ـ

لستُ عميلاً قَذراً

كما يقولُ مخبروكُمْ – سادتي الكرامْ

ولا سرقتُ قمحةً

ولا قَتَلتُ نملةً

ولا دخلتُ مركزَ البوليس.. يوماً..

سادتي الكرامْ

يعرفني الأطفال والأشجارُ والحَمَامْ

وأنبياءُ اللّه يعرفونني

عليهمُ الصلاةُ والسلامْ

الصَلوا تُ الخمسُ لا أقطعُها

يا سادتي الكرامْ

وخُطْبةُ الجُمعة لا تفوتُني

يا سادتي الكرامْ

وغيرَ ثدييْ زوجتي لا أعرفُ الحرامْ

من ربع قرنٍ وأنا

أمارسُ الركوع والسجودْ

أمارسُ[1] القيام والقعود

أُمارسُ التشخيصَ خلف حضرة الإمام

يقولُ: (اللهَّم امحق دولة اليهودْ)

أقولُ:(اللهمَّ امحق دولة اليهودْ)

يقولُ :(اللهمَّ شتّتْ شمْلَهُمْ)

أقولُ:(اللهمَّ شتّتتْ شمْلَهُمْ)

يقولُ: (اللهمَّ اقطع نسْلَهُمْ)

أقولُ: (اللهم اقطع نسْلَهُمْ)

يقولُ: (أغرقْ حرثَهُمْ وزَرْعَهُمْ)

أقولُ: (أغرِقْ حرثَهُمْ وزَرعَهمْ)

وهكذا.. يا سادتي الكرامْ

قضيتُ عشرينَ سَنَةْ..

أعيشُ في حظيرة الأغنامْ

أُعْلَفُ كالأغنامْ

أنامُ كالأغنامْ

---

(١) هذه المفردة من صميم القاموس الشعري لنزار قباني.

أبول[٢] كالأغنامْ

أدورُ كالحبَّةِ في مَسْبَحَةِ الإمام

أعيدُ كالبَبغاءِ،

كُلَّ ما يقولُ حضرةُ الإمامْ

لا عقلَ لي...

لا رأسَ...

لا أقدامْ...

أستنشقُ الزُكامَ من لحْيتِهِ

والسُلَّ في العظامْ..

---

(٢) هذه المفردة من خارج القاموس الشعري لنزار قباني، وهي مفردة نابية وفجة، تثير الاشمئزاز الذهني. كذلك استعمل الشاعر الكبير محمود درويش، نفس هذه المفردة، لكن بمفردة سوقية أقرب إلى العامية، وذلك في أمسية شعرية جماهيرية، ثم حذف هذه المفردة بعد أن أصدر ديوانه الذي حمل اسم (بيروت مديح الظل): يقول محمود درويش:

أمريكا على الأسوار

تهدي كل طفلة لعبة للموت عنقودية

أمريكا هي الطاعون

والطاعون أمريكا

نِعسنا أيقظتنا الطائراتُ

وصوت أمريكا

لأمريكا

سنحفْرُ ظِلَّنا

ونشخُّ مزيكا

على تمثال أمريكا!؟

قضيتُ عشرينَ سَنَةْ

مُكَوَّماً..

كرُزْمة القَشّ على السُجَّادةِ الحمراءْ

أُجْلَدُ كُلَّ جُمعةٍ بُخطْبةٍ غرَّاءْ

أبتلعُ البيانَ، والبديعَ،

والقصائد العصماءْ

أبتلع الهُراءْ..

وأنا يا سادتي

أسكُنُ في طاحونةٍ

ما طَحَنتْ – قطُّ – سوى الهواءْ

يا سادتي

بخنجَري هذا الذي ترَوْنَهُ

طعنتُهُ..

في صدره والرَقَبَةْ

طعنتُهُ..

في عقله المنخورِ مثلَ الخشَبَةْ

طعنتُهُ باسمي أنا..

واسم الملايينِ من الأغنامْ

يا سادتي

أعرفُ أنَّ تُهْمتي عقابُها الإعدامْ

لكنَّني

قتلتُ إذْ قتلتُهُ

كُلَّ الصراصير التي تُنْشِدُ في الظلامْ

والمستريحينَ على أرصفة الأحلامْ

قتلتُ إذْ قتلتُهُ..

كُلَّ الطفيليَّات في حديقة الإسلامْ

كُلَّ الذين يطلبونَ الرزْقَ..

من دُكَّانةِ الإسلام

قَتَلتُ إذ قتلتُهُ

يا سادتي الكرامْ..

كُلَّ الذينَ منذ ألف عامْ

يَزْنونَ بالكلام..

* * *

هوامش على دفتر النكسة

ـ ١ ـ

أنعي لكُم، يا أصدقائي اللغةَ القديمهْ[1]

والكُتُبَ القديمه

أنعي لكم:

كلامَنا المثقوبَ كالأحذية القديمة

ومفرداتِ العُهرِ، والهجاء والشتيمة

أَنْعي لكُمْ..

أنعي لكم..

نهاية الفِكرِ الذي قادَ إلى الهزيمة

---

(١) ما هي اللغة القديمة التي ينعاها الشاعر إلى أصدقائه، وما هي تلك الكتب القديمة وهل كان الذين سببوا نكسة حزيران من متحدثين بلغة قديمة أو قرّاء كتب قديمة؟ الكلمة هنا (القديمة) تغدو غير دقيقة.

ـ ٢ ـ

مالحةٌ في فمنا القصائدْ

مالحةٌ ضفائرُ النساءْ

والليلُ، والأستارُ، والمقَاعِدْ

مالحةٌ أمامَنا الأشياءْ..

ـ ٣ ـ

يا وطني الحزينْ

حَوَّلَتني بلحظةٍ

من شاعر يكتبُ شِعْرَ الحُبّ والحنين

لشاعر يكتُبُ بالسِكّين..

ـ ٤ ـ

لأن ما نُحِسُّهُ

أكبَرُ من أوراقِنا..

لابُدَّ أن نَخجَلَ من أشْعَارِنا

ـ ٥ ـ

إذا خَسِرنْا الحربَ، لا غرابَهْ

لأنّنا ندخُلُها

بكلّ ما يملكُهُ الشرقيُّ من مواهب الخِطابَه

بالعنترَيَّات التي ما قَتَلَتْ ذُبابَهْ

بمنطق الطبلةِ والرَبَابَهْ

ـ ٦ ـ

السرُّ في مأساتِنا

صراخُنا أضْخَمُ من أصواتنا

وسيفُنا..

أطولُ من قاماتِنا...

ـ ٧ ـ

خُلاصَةُ القضَّيهْ

تُوجَزُ في عبارَةْ

لقد لبِسْنَا قِشرةَ الحضارَةْ

والروحُ جاهليَّه...

ـ ٨ ـ

بالناي والمِزْمارْ

لا يحدثُ انتصارْ..

ـ ٩ ـ

كلَّفَنا ارتحالُنا

خمسين ألفَ خيمةٍ جديدَة..

ـ ١٠ ـ

لا تَلْعنّوا السماءْ

إذا تخلَّتْ عنكُمُ

لا تلعنوا الظروفْ

فاللهُ يُؤتي النصرَ من يشاء

وليسَ حدّاداً لديكُمْ..

يَصْنَعُ السُيُوفْ..

ـ ١١ ـ

يوجِعُني أن أسمعَ الأنباءَ في الصباح

يُوجَعُني..

أن أسمَعَ النِباحْ..

ـ ١٢ ـ

ما دَخَلَ اليهودُ من حدودنا

وإنما..

تَسَرَّبوا كالنملِ من عُيُوبِنا..

ـ ١٣ ـ

خمسةُ آلاف سَنَة..

ونحنُ في السِرْدَابْ

ذُقُونُنَا طويلةٌ

عيونُنا مرافئُ الذُباب..

يا أصدقائي:

جَرِّبوا أن تكسروا الأبواب

أن تغِسلوا أفكاركُمْ

وتغِسلُوا الأثوابْ

يا أصدقائي:

جرِّبوا أن تقرأوا كِتَابْ..[٢]

أن تكتبُوا كتاب..

أن تزرعُوا الحُروفَ..

والرُمَّانَ..

والأعنَابْ..

أن تُبْحِروا إلى بلاد الثلج والضَبَاب

فالناسُ يجهلونكُمْ..

في خارج السِرْدابْ

الناسُ يحسَبُونَكُمْ

نوعاً من الذِئابْ...

---

(٢) كان جنرال الحرب "الإسرائيلي" موشي دايان يتبجح في تصريحاته الصحفية، أن العرب لا يكلفون أنفسهم عناء القراءة الجادة الواعية. لذلك كشف عن خطته العسكرية قبل حرب حزيران، استناداً لهذه المقولة الظالمة، التي أضحت في أيامنا هذه من أوهام الماضي.

ـ ١٤ ـ

جُلودُنا ميّتَةُ الإحسَاسْ

أرواحُنا تشكو من الإفلاس

أيَّامُنا تدورُ بين الزارِ..

والشطْرَنْجِ[٣]

والنُعَاسْ..

هَلْ (نحنُ خَيرُ أمَّةٍ قد أخْرِجَتْ للناسْ)؟

ـ ١٥ ـ

كانَ بُوسْع نفْطِنا الدافق في الصحارى

أن يستحيلَ خنجراً

من لَهَبٍ ونار

لكنَّهُ..

واخَجلَتَ الأشرافِ من قُرَيْشٍ

وخَجْلَتَ الأحرار من أوسٍ ومن نزارِ

يُراقُ تحتَ أرجُل الجواري..

(٣) كان من المستحسن أن يستعمل الشاعر كلمة (طاولة الزهر) لما فيها من إضاعة للوقت، لأن لعبة الشطرنج، هي متعة للعقل، ومعركة حامية الوطيس بلا سلاح، سوى استخدام الذكاء الحاد...لكن يبدو أن هول نكسة حزيران، جعلت شاعرنا الكبير يخرج عن المألوف.

ـ ١٦ ـ

نركُضُ في الشوارع

نحملُ تحتَ إبْطنا الحِبَالا

نمارسُ السَحْلَ بلا تبصُّرٍ

نحطمُ الزجاجَ والأقفالا

نمدح كالضفادع

نشتُمُ كالضفادع

نجعلُ من أقزامنا أبطَالا

نجعلُ من أشرافنا أنذالا

نرتجلُ البطولةَ ارتجالا

نقعد في الجوامعِ

تنابلاً، كُسَالى

نُشَطِّرُ الأبياتَ، أو نؤلِّفُ الأْمثالا

ونشحذُ النصرَ على عدونا

من عندِهِ تعالى...

ـ ١٧ ـ

لو أَحَدٌ يمنحني الأَمَانْ

لو كنتُ أستطيعُ أن أقابلَ السُلْطَانْ

قلتُ لَهُ:

يا سَيّدي السُلْطَانْ

كلابُكَ المفترساتُ مَزَّقت ردائي

ومُخبرُوك دائماً ورائي..

عيُونُهُمْ ورائي..

أُنُوفُهُمْ ورائي..

أقدامُهمْ ورائي..

يستجوبون زوجتي..

ويكتُبون عندهُمْ أسماء أصدقائي..

يا حضرةَ السُلطان

لأنني اقتربتُ من أسوارِكَ الصمَّاءِ

لأنني حاولتُ أن اكشف عن حُزني وعن بلائي

ضُرِبتْ بالحذاء..

أَرْغَمني جُنْدُكَ أن آكُلَ من حِذائي

يا سيدي.. يا سيّدي السلطانْ

لقد خسرتَ الحربَ مرتَّينْ

لأنَّ نصف شعبنا ليس له لِسانْ

ما قيمةُ الشعب الذي ليس له لسانْ؟

لأنَّ نصف شعبنا محاصرٌ كالنَمل والجُرذانْ

في داخل الجدران..

لو أحدٌ يمنحُني الأمانْ

من عسكر السُلطانْ

قلتُ لهُ: يا حضرةَ السُلْطانْ

لقد خسرتَ الحربَ مرتَّين

لأنك انفصلتَ عن قضية الإنسانْ

ـ ١٨ ـ

لو أنَّنا لم ندفن الوحدة[٤] في التُرابْ

لو لم نمزّق جسمَها الطريَّ بالحِرابْ

لو بَقِيَتْ في داخل العيون والأهداب

لما استباحَتْ لحمَنا الكلابْ..

---

(٤) يقصد الوحدة السورية — المصرية في عام ١٩٥٨. وكذلك الوحدة العربية الشاملة بصورة عامة.

ـ ١٩ ـ

نُريدُ جيلاً غاضباً

نُريدُ جيلاً يَفْلَحُ الآفاقْ

وينكُشُ التاريخَ من جُذُورهِ

وينكُشُ الفكْرَ من الأعماقْ

نريدُ جيلاً قادماً مختلفَ الملامحْ

لا يغفر الأخطاءَ.. لا يُسامِحْ

لا ينحني.. لا يعرفُ النفاقْ..

نريدُ جيلاً، رائداً، عملاقْ..

ـ ٢٠ ـ

يا أيُّها الأطفالْ:

من المحيط للخليج أنتُمُ سنابلُ الآمالْ

وانتمُ الجيلُ الذي سيكسرُ الأغلالْ

ويقتُلُ الأفيونَ في رؤوسنا

ويقتُلُ الخيالْ..

يا أيُّها الأطفالُ:

أنتُم ــ بَعْدُ ــ طيبُونْ

وطاهرونَ، كالندى والثلج، طاهرونْ

لا تقرأوا عن جيلنا المهزوم[5]، يا أطفالْ

فنحنُ خائبونْ

ونحنُ، مثل قِشرة البطِّيخ تافهون

ونحنُ مَنْخُورونَ... منخُورونَ..

منخُورونَ كالنعالْ..

لا تقرأوا أخبارَنا

لا تقبلوا أفكارَنا

فنحنُ جيلُ القيء.. والزُهريّ..والسُعالْ..

ونحنُ جيلُ الدجل[6] والرقصِ على الحِبالْ

يا أيُّها الأطفالْ:

يا مطرَ الربيعِ، يا سنابلَ الآمالْ

أنتُمْ بذورُ الخصب في حياتنا العقيمة

وأنتُمُ الجيل الذي سيهزمُ الهزيمة..

---

(٥) هل صحيح أن جيلنا جيل الهزيمة والضياع وغير ذلك؟ وهل صحيح أن جيل الغد هو جيل المعجزات؟ إن فصل الجيل القادم عن جيلنا هو بحد ذاته عملية تؤكد الهزيمة والضياع. ومن غير الإنصاف للتاريخ والحقيقة أن لا نرى في جيلنا إلاّ الهزيمة، وهو الجيل الذي صنع الاستقلال العربي، وهو الجيل الذي قاتل وناضل وضحى وطرد المستعمر من الأرض العربية وهو الجيل الذي تعلم، والذي نقل الدنيا العربية إلى مشارف القرن العشرين.

(٦) الجيل الذي يهاجمه هو الجيل الذي أعطى عبد الرحيم محمود، شاعراً وشهيداً.

الممثلون

ـ ١ ـ

حينَ يصيرُ الفِكْرُ في مدينةٍ

مُسَطَّحاً كحَدْوَةِ الحصانْ..

مُدَّوراً كحَدْوَةِ الحصانْ..

وتستطيعُ أيُّ بندقيةٍ

يرفعُها جبانْ

أن تسحقَ الإنسانْ

حينَ تصيرُ بَلْدةٌ بأسْرِها

مصيدةً.. والناسُ كالفئرانْ

وتُصبحُ الجرائدُ الموجَّهةْ[1]

أوراقَ نَعيٍ تملأ الحيطانْ

يموتُ كلُّ شيءْ

(١) هذا الوقف على كلمة(الموجهة) يدل على الألم الرهيب الذي كان يموج في صدر الشاعر فاندفع بعفوية مطلقة، دون إجهاد الفكر، إلى استعمال هذه الكلمة، في غير مكانها المناسب. وهذا الرأي يشير إليه الشاعر الناقد أحمد سليمان الأحمد في كتابه الهام (الشعر العربي من النكبة إلى النكسة) الصادر عن دار دمشق العام /١٩٧٥م/.

يموتُ كلُّ شيءْ

الماءُ، والنباتُ، والأصواتُ، والألوانْ

تهاجرُ الأشجارُ من جّذُورها

يهربُ من مكانِهِ المكانْ

وينتهي الإنسانْ

ـ ٢ ـ

حينَ يصيرُ الحَرْفُ في مدينةٍ

حشيشةً..

يمنعُها القانونْ..

ويصبحُ التفكيرُ كالبغَاءِ واللُّواط..

والأَفيونْ..

جريمةً يطالها القانونْ..

حينَ يصيرُ الناسُ في مدينةٍ

ضفادعاً مفقوءة العيونْ

فلا يثورونَ ولا يشكُونْ

ولا يُغنُّونَ ولا يبكونْ

ولا يموتونَ ولا يحيونْ

تحترق الغاباتُ، والأطفالُ، والأزهارْ

تحترقُ الثمارْ..

ويصبح الإنسانُ في موطنهِ

أذلَّ من صَرْصارْ...

ـ ٣ ـ

حينَ يصيرُ العدلُ في مدينةٍ

سفينةً..

يركبُها قُرْصان

ويصبح الإنسان في سريرهِ

مُحاصَراً.. بالخوف والأَحزانْ

حينَ يصيرُ الدمعُ في مدينةٍ

أكبرَ من مساحة الأجفانْ

يسقطُ كلُّ شيء

يسقطُ كلُّ شيءْ

الشمسُ، والنجومُ، والجبالُ، والوديانْ

والليلُ، والنهارُ

والبحارُ، والشطآنْ

واللّه.. والإنسانْ(٢)

---

(٢) يبدو الشاعر متأثراً بأهل الذوق من المتصوفة وشطحاتهم التي تفسّر على أكثر من مستوى.

ـ ٤ ـ

حينَ تصيرُ خوذةٌ

كالربّ في السماءْ

تصنع بالعباد ما تشاءْ

تَمَعَسُهُمْ

تهْرُسُهُمْ

تُمِيتُهُمْ

تصنع بالعباد ما تشاءْ

حينَ يصير الحُكْمُ في مدينةٍ

مِمْسحةً

والفكرُ كالحذاء..

حينَ تصيرُ نسْمَةُ الهواءْ

تأتي بمرسوم من السلطانْ

وحَبَّةُ القمح التي نأكلهُا

تأتي بمرسوم من السلطانْ

وقطْرةُ الماءِ التي نشربُها

تأتي بمرسوم من السلطانْ

حينَ تصيرُ أمَّةٌ بأسْرِها..

ماشيةً.. تُعْلَفُ في زريبة السلطانْ

يختنقُ الأطفالُ في أرحامهمْ

وتُجْهض النساءْ..

وتسقط الشمس على ساحاتنا

مشنقةً سوداءْ

ـ ٥ ـ

متى سترحلون؟

المسرحُ انهار على رؤوسكم

متى سترحلونْ؟

والناسُ في القاعة،

يشتمونَ...

يبصُقُون...

كانتْ فلسطينُ لكُمْ

دجاجةٍ.. من بَيْضها الثمين تأْكلونْ

كانت فلسطينُ لكمْ

قميصَ عثمانَ[٣] الذي به تُتَاجرون

(٣) حين تعرض الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، لمؤامرة رهيبة أودت بحياته. كتبت زوجة عثمان، السيدة نائلة بنت الفرافصة، إلى معاوية وأهل الشام تصف ما حدث للخليفة عثمان، وبعثت مع الرسول قميص زوجها المصبوغ بالدم، وأناملها المقطوعة نتيجة دفاعها المستميت عن زوجها. وحين وصل قميص عثمان رضي الله عنه، إلى دمشق علّقه أتباع معاوية على منبر الجامع الأموي، وأبوا البيعة للإمام

طُوبى لكمْ..

على يدْيكمْ أصبحت حدودُنا

من وَرَقٍ.. فألفُ تُشْكرُونْ..

على يدْيكمْ أصبحتْ بلادُنا

إمرأةٍ مباحةً..

فألفُ تُشْكَرُونْ..

ـ ٦ ـ

حربُ حزيرَانَ انتَهَتْ..

فكلُّ حربٍ بعدها، ونحنُ طيّبونْ[٤]

وحالُنا – والحمدّ للّه على أحسنِ ما يكوُنْ

والقهوةُ المُرَّةُ بالهال.. على أَحسنِ ما يكونْ

والقمرُ المزروعُ في سمائِنا..

على أحسنِ ما يكونْ..

وصوتُ فيروزَ..

من الفردوس يأتي:

"نحنُ راجعونْ"

علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلاّ إذا سلَّمهم قتلة عثمان على حد زعمهم. وأصبح القميص يعرض للجمهور كلما دعت الحاجة إليه، من أجل تأليب، الرأي العام، أثناء الصراع الحاد بين الإمام علي ومعاوية.

(٤) دعابة سوداء، تصنف ضمن الضحك الأسود، أو كرقص الطير المذبوح من الألم.

تغلغلَ اليهودُ في ثيابِنَا

و"نحنُ راجعونْ"

صاروا على مترينِ من أبوابِنا

و"نحنُ راجعونْ"

ناموا على فراشِنا

و"نحنُ راجعون"

وكلُّ ما نملِكُ أن نقولَهُ:

"إنَّا إلى الله لراجعونْ"

ـ ٧ ـ

حربُ حزيرانَ انتهتْ..

وحالُنا – والحمد للّهِ – على أحسنِ ما يكونْ

كُتَّابُنا.. على رصيف الفكر عاطلونْ

من مطبخ السلطان يأكلونْ

بسيفه الطويلِ يضربون

كُتّابُنا..

ما مارسوا التفكيرَ من قُرُونْ

لمْ يُقْتَلوا..

لمْ يُصْلَبُوا..

لم يقفوا على حدود الموت والجُنُون

كُتَّابُنا..

يحيونَ في إجازةٍ

وخارجَ التاريخْ يسكُنُونْ..

حربُ حزيرانَ انتَهَتْ..

جرائدُ الصباح ما تغيرَّتْ..

الأحرفُ الكبيرةُ الحمراءُ.. ما تغيَّرتْ

الصُور العاريةُ النكراءُ.. ما تغيَّرتْ

والناسُ يلهثُونْ..

تحت سياط الجنس يلهثُونْ..

تحت سياط الأحرفِ الكبيرةِ الحمراءِ..

يسقطونْ

الناس كالثيران في بلادنا

بالأحمر الفاقع يؤْخَذُون..

ـ ٨ ـ

حربُ حزيرانَ انتهَتْ..

وضاعَ كلُّ شيءْ..

الشرفُ الرفيعُ،[5] والقلاعُ، والحصونْ

والمالُ و البَنُون[6]

لكننَّا.. باقونَ في محطَّةِ الإذاعهْ:

((فاطمةٌ تهدي إلى والدها سِلامَها..))

((وخالدٌ يسألُ عن أعمامه في غزَّة.. وأين يقطنون..))

((نفيسةٌ قد وضَعَتْ مولودها..))

((وسامرٌ حاز على شهادة الكفاءة..))

((فطمئنونا عنكُمُ.. عنوانُنا: المخيَّمُ التَسْعُون..))

ـ ٩ ـ

حربُ حزيرانَ انتَهَتْ..

كأنَّ شيئاً لم يكُنْ..

لم تختلفْ أمامَنا الوجوهُ والعيونُ..

محاكم التفتيش عادت.. والمفتشونْ

والدونكشوتيُّونَ[7] مازالوا يُشَخّصونْ

---

(٥) هذه العبارة مستمدة من قول المتنبي، الجد الأكبر للشعراء العرب:

لا يسلَمُ الشرفُ مِنَ الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ

(٦) هذه العبارة مستمدة من قوله سبحانه وتعالى: ((المال والبنون زينة الحياة الدنيا)).

وتجدر الإشارة إلى أن تقديم المال على البنين في الآية الكريمة قد ورد عطفاً بالواو. والعربية حين تقصد الترتيب والأهمية إنما تعطف بثم أو الفاء، ولا ترمي في العطف بالواو أية أهمية. والشواهد على هذا في القرآن الكريم ولغة العرب أكثر من أن تحصى.

والناسُ..

من صعوبةَ البكاءِ.. يضحكونُ..

ونحنُ قانعونْ

بالحرب قانعونْ

والسلْم قانعونْ

وبالحَرّ قانعونْ

والبَرْد قانعونْ

بالعُقْم قانعونْ

والنَسْل قانعونْ

بكلّ ما في لَوْحنا المحفوظ في السماء قانعونْ

وكلٌّ ما نملِكُ أن نقولهُ:

"إنَّا إلى الله لراجعون"

ـ ١٠ ـ

احترقَ المسرحُ من أركانِهِ..

ولم يَمُتْ – بعدُ الممثلّون..

---

(٧) دون كيشوت: بطل روائي امتهن الفروسية.وقد أدرك مؤلف الرواية سرفانتس بحق أن كل مخلوق بشري منا يكاد يكون خليطاً من دون كيشوت، وتابعه سكنشوبانزا، فنحن أحيانا تغلبنا الحماقة على حكمتنا فنقاتل طواحين الهواء.

خبز وحشيش وقمر

عندما يولدُ في الشرقِ القمَرْ

فالسطوحُ البيضُ تغفو

تحت أطنان الَزهَرْ..

يتركُ الناسَ الحوانيتَ ويمضون زُمَرْ..

لملاقاةِ القَمَرْ..

يحملون الخبز.. والحاكي.. إلى رأس الجبال

ومعدّاتِ الخدَرْ..

ويبيعونَ.. ويشرونُ خيالْ

وصُوَرْ..

ويموتون.. إذا عاشَ القمرْ..

ما الذي يفعله قرص ضياءْ؟

ببلادي..

ببلاد الأنبياءْ..

وبلادِ البسطاءْ..

ماضغي التبغ وتُجار الخدَرْ..

ما الذي يفعله فينا القمَرْ؟

فنضيع الكبرياء..

ونعيش لنستجدي السماءْ..

لكسالى.. ضعفاء..

يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمرُ..

ويهزّونَ قبورَ الأولياءْ..

علّها ترزقُهُم رزاً.. وأطفالاً.. قبورُ الأولياءْ

ويمدوّن السجاجيدَ الأنيقاتِ الطُرَزْ..

يتسلّون بأفيونٍ نسمّيه قَدَر..

وقضاءْ..

في بلادي.. في بلاد البسطاءْ..

أيّ ضعف وانحلالْ

يتولاّنا إذا الضوء تدّفق

فالسجاجيدُ.. وآلاف السلالْ

وقداحُ الشاي.. والأطفال.. تحتلّ التلال..

في بلادي...

حيث يبكي الساذجونْ..

ويعيشون على الضوء الذي لا يبصرونْ..

في بلادي...

حيث يحيا الناسُ من دون عيونْ..

حيث يبكي الساذجونْ..

ويصلّونَ..

ويزنونَ..

ويحيون اتكال..

منذ أن كانوا يعيشون اتكال..

وينادون الهلالْ:

يا هلالْ...

أيها النبعُ الذي يُمْطر ماسْ..

وحشيشاً،، ونعاس...

أيها الربُّ الرخاميُّ المعلقْ

أيها الشيء الذي ليس يُصّدقْ...

دمتَ للشرقِ... لنا

عنقودَ ماسْ...

للملايين التي قد عُطّلتْ

فيها الحواسْ

في ليالي الشرق لما

يبلغ البدرُ تمامهْ

يتعرى الشرقُ من كل كرامهْ

ونضال...

فالملايين التي تركضُ من غير نعالِ..

والتي تؤمنُ في أربع زوجاتٍ..

وفي يوم القيامَهْ..

الملايينُ التي لا تلتقي بالخبز.. إلا

في الخيال..

والتي تسكن في الليل بيوتا

من سُعالِ..

أبداً.. ما عرفتْ شكلَ الدواءْ..

تتردّى جثثاً تحت الضياءْ..

في بلادي..

حيث يبكي الأغبياءْ..

ويموتون بكاءْ..

كلّما طالعهُمْ

وجهُ الهلال..

ويزيدونَ بكاءْ..

كلّما حركّهمْ عُودٌ ذليلٌ و(ليالي)

ذلك الموتُ الذي ندعوه في الشرق

((ليالي))

وغناءْ..

في بلادي..

في بلاد البسطاءْ..

حيث نجترّ التواشيح الطويلَةْ

ذلك السّل الذي يفتك بالشرقِ..

التواشيحُ الطويلةْ

شرقنا المجتّر.. تاريخاً

وأحلاماً كسولةْ..

وخرافاتٍ خوالي..

شرقنا، الباحث عن كل بطولةْ..

في أبي زيد الهلالي..[1]

---

(١) النار التي أوقدتها هذه القصيدة حولها في المجتمع العربي، خاصته وكافته، كانت شيئاً لم يعرفه تاريخ النار.. و لا تاريخ القصائد...

قيل في القصيدة أشياء كثيرة، وقيل في صاحبها أشياء أكثر، وتجمع حولها طوفان من القول و النقد طغى على كثير من الحوادث السياسية الهامة التي رافقت هذه القصيدة... هذه القصيدة كتبها نزار قباني – على حد تعبيره – في سبيل شرق أجمل وأفضل. شرق يرمي بخوره، وتعاويذه، وقمامته، وقرقرة نراجيله.. إلى الشيطان، وينتصب كالمارد في موكب حضارة مستعجلة لا تنتظر الحالمين.

مقدمة نثرية لقصيدة (الثقب)

اخترت أن أكون الخنجر

باسم خمسة آلاف مستمع غصت بهم قاعة قصر الثقافة الكبرى في العاصمة الأردنية مساء الثالث عشر من نيسان عام /١٩٨٧م/، رحب الشاعر الأردني حيدر محمود بالشاعر، ثم دعاه ودعا جمهور عشاق شعره إلى هذه الليلة العمانية: نجمة ونغمة، وبستان ورد. واعتلى نزار منصة الشعر، وقبل أن يقرأ قصيدته (الثقب) قرأ هذه المقدمة النثرية التي خض بها نزار ذاكرة مستمعيه، و(ثقب) بها جراب الذاكرة الثقافية العربية المعاصرة، مثلما كان يفعل دائماً، بهدف تشذيب تلك الذاكرة، ونفضن غبار الركود الآسن، ثم فتح قلبه ووجدانه قائلاً:

أيها الأحبة:

لن أكون هذه الليلة شاعراً رقيقاً كما تنتظرون، لأن المفهوم العربي للشاعر الرقيق، يعني أن يدخل هذا الشاعر في سلك الدروشة.. ويمشي من الحائط إلى الحائط طالباً من الله السترة...

لذلك فإنني اعتذر عن قبول لقب الشاعر الرقيق... أو الشاعر المستور.. لأن الرقة والسِتْرةَ هما من أعمال الجمعيات الخيرية. بل هما مؤامرة مضادة للشعر.

وأعترف لكم بادئ ذي بدء، أنني شاعرٌ غيرُ منضبط... وغير مريح.. وغير مؤدب.. وأنني لم أقصّ أظافري الشعرية منذ أن كنت في العاشرة من عمري.

وأعترف لكم أيضاً أن عندي حساسية مفرطة من رائحة السلطة، سواء كانت سلطة بوليسية، أم سلطة نسائية.

أعترف لكم أيضاً أنني مشاغبٌ وعدواني، وأنني الآن عاطل عن العمل، لأنني قتلت جميع أسيادي.. وجميع أرباب العمل الذين اشتغلت معهم.. كما قتلت مدرّس التاريخ الأهبل الذي لا يزال يصرُّ على أن مدينة غرناطة لا تزال ولاية من ولايات أمير المؤمنين.. وأن مسجد قرطبة الكبير لا يزال تابعاً لوزارة الأوقاف في المغرب. ولأن كتاباتي لم تلتزم بمنطق القبيلة وقناعاتها، فقد وجدت نفسي كالشعراء الصعاليك... على رصيف الشارع العربي.

وتلك هي ضريبة الكلمات التي ترفض زواج المتعة.. وترفض أن تنام مع السلطة في فراشٍ واحد.. فالزواج من السُلطة هو جحيم في النهار.. وكوابيس في الليل..

وخيرٌ للكاتب أن يبقى عازباً إلى أبد الآبدين.. من أن يتحول إلى خادمة سيرلانكية... تنتقل من مالك إلى مالك، ومن متعهد إلى متعهد... وفقاً لمتطلبات السوق السياسية، وقوانين العرض والطلب.

لو كان على الشعر أن يكون مؤدباً، ومهذباً، ويعمل بتعاليم السلف الصالح، من أنَّ خير الأمور الوسط وأن القناعة كنزٌ لا يفنى... لتحولت القصيدة إلى قط من خشب...

ولو كان على الشاعر أن يتمسكن.. ويتسول... ويلبس الثياب المرقّعة... ويبحث عن وظيفة أميرية، أو صحن حساء.. لتحوّل الشعر إلى تكيَّة للدراويش..

ولو كان على الشاعر أن يُدير خدَّهُ الأيسر لمن يضربه على خده الأيمن.. لتحوَّل حكّام العالم إلى مجموعة من الملاكمين.

ولو كان الشعر من فصيلة الحيوانات الأليفة... كالحمام الزاجل والكناري لاشتريناه من عند بائع العصافير.

لو كان الشعر موظفاً عثمانياً، يلبس الطربوش الأحمر، ويطقطق مسبحته خلال ساعات العمل، وينطوي نصفين أمامَ الباب العالي.. لكان نصف الشعر العربي مكتوباً باللغة التركية.

ولكن الشعر يرفض كل الأعمال المنزلية الآنفة الذكر، كما يرفض رفضاً قاطعاً أن يكون زوجة لا تستطيع الخروج من بيت الطاعة.

أيها الأصدقاء:

عندما يختار الشاعر أن لا يقول شيئاً.. وأن لا يغضب أحداً.. وأن لا يتعدى على عذرية نملة.. يقولون عنه أنه مؤدب.. وجنتلمان.. وابن ناس.. ولا أدري ما هو معيار الجنتلمانية في الشعر.. وما هي البروتوكولات التي تجعل من شاعر منبطح على بطنه منذ ثلاثين عاما ابن ناس.. ومن شاعر يحطم بقبضته زجاج الشمس ابن آوى..

والسؤال الذي لا بدّ من طرحه هو التالي:

هل نحن بحاجة إلى شعراء معلّقين كالبراويز على حيطان وزارات الثقافة والإعلام.. أم نحن بحاجة إلى شعراء يضرمون النار في ثيابهم على الطريقة البوذية؟!

هل نحن بحاجة إلى شعراء يلبسون الأحذية اللماعة، والقبّات المنشاة.. ويكتبون القصائد المنشّاة.. أم نحن بحاجة إلى شعراء يقلعون جلدهم ويلبسون العاصفة؟

ثم لا أدري، إذا كان الوطن العربي، في صورته الحاضرة، بحاجة إلى شعراء يأكلون الشعر بالشوكة والسكين.. أم بحاجة إلى شعراء متوحشين ينقضون على هذا الخراب الكبير كالنسور الجارحة؟

إنني بدون تردد مع القصيدة المتوحشة! مع القصيدة التي لم تقرأ كتاباً واحداً عن فن الجلوس إلى المائدة، أو فن تنسيق الأزهار على الطريقة اليابانية، أو فن تقبيل أيدي النساء على الطريقة الإنكليزية. لا تستطيع القصيدة أن تكون عاقلة في غابة من المجانين..

و لا تستطيع أن تكون مانيكاناً في كرنفال من القبح.. ولا تستطيع أن تضع الخلاخيل في ساقيها.. وترقص حتى الفجر.. لرجال الميليشيات.

يا أصدقائي:

ليس هذا زمن العصافير.. ولا زمن المواويل.. ولا زمن الورد واللوز والعنب.. وليس هذا زمن ابن زيدون، وابن المعتز، وابن نباتة الأندلسي، كلها صارت في ذمة الله..

وصار تطبيق القرار ((٢٤٢)) مطلب جميع الأندلسيين.. والعالم العربي يتآكل كلَّ يوم كبرتقالة عفنة.. وينام على مسلسلات الرعب.. ويصحو على مسلسلات الرعب.. إن هيتشكوك العربي، هو البطل القومي الوحيد، الذي تملأ تماثيله ساحات المدن العربية... أما الشعب العربي فهو موضوع في الفريزر.. وهو بالتعبير المصري في كمبيالة مؤجلة الدفع حتى إشعار آخر..

وفي هذا الإطار الهيتشكوكي الرهيب.. العابق برائحة الموت، والبارود، والمسدسات الكاتمة للصوت.. مطلوب من الشاعر أن يضرب على طبلته.. ويهز وسطه..ويشارك في الفرح.

إنني من زمان بعيد، مستقيل من وظيفة إحياء الأفراح، ففي هذا الزمن العربي الذي لا وصف له، لم يعد أمامي خيارات كثيرة.فإما أن أكون حمامة تسكن في قبة مسجد.. وإما أن أكون خنجراً في لحم عصور الانحطاط.. ولقد اخترت أن أكون الخنجر. والآن مع قصيدتي الجديدة واسمها (الثقب):

الثقب

لقد مرَّ عشرون عاماً علينا

لقد مرّ عشرون عام

ولا نجم يسطعُ

لا أرضَ تحبلُ

ولا قمحَ يطلعُ من تحت هذا الركام

ولا غيمةٌ ماطرة

فهل نسي الشارعُ العربيُّ الكلام؟

وصرنا شعوبا بلا ذاكرة

لماذا الجماهيرُ بين المحيط وبين الخليج

تجوب الأزقةَ كالقطط الخائفة..

وأين هو الشارع العربيُّ

الذي كان يمضغُ لحمَ الطغاة

ويخترع العاصفة؟

وكيف خرجنا من الحلم الوحدويّ الكبير؟

لندخلَ ثقباً صغيراً

يسمُّونَهُ الطائفة..

لقد مرَّ عشرون عاماً علينا

لقد مرَّ عشرون عام

ونحن وقوف كأعمدة الكهرباء

نحدّق مثل البهاليل صَوْبَ السماء

تمرُّ القطارات من قربنا

تمر الحضارات من فوقنا

تمر الزلازل من تحتنا

فلا نتأمل شيئاً

ولا نتذكر شيئاً

ولا نتحمسُ حين مجيء الربيع

ولا نتأثر حينَ رحيل الشتاء..

فلا الله يرضى المكوث لدينا

ولا الأنبياء

لقد مرَّ عشرونَ عاما علينا

وليس هنالك من يطرح الأسئلة

وليس هناك مسيحٌ ولا جُلْجُلَةْ

ونحن هنا نتناسل مثل الزواحف في الغرف المقفلَة

فأين هو الشارع العربي الذي كان يبصقُ ناراً

ولا يعرف الفرقَ بين القصيدة.. والقنبلة..

لقد مرَّ عشرون عامْ

ونحنُ توابيت مصنوعة من رخامْ

نبايع أيَّ عقيد يجيءُ..

ونلعق جزمةَ أي نظام..

ونلبس جلدَ النمور.. ونحن حَمامْ

ونزعُمُ أنا جبال

ونحنُ نطير بكل اتجاهٍ..

كريش النعام..

كريش النَعام..

كريش النَعام..

لقد مرَّ عشرون عاماً علينا

لقد مرَّ عشرون عام

يحاصرنا الروم من كلّ صَوْبٍ

وليس هنالك ثأرٌ

وليس هنالك من يثأرون

ويسقط نخلُ العراق جريحاً

ولا صوت يثقُبُ أعماقَ هذا الظلام

ولا شيء يطلع من هذه الأرض

إلاّ الطَباقُ،

وإلاّ الجنَاس

وإلاّ ألاعيب علم الكلامْ

ويأكل سكان بيروت فئَرانَهُمْ

وليس هنالك حزنٌ..

وليس هنالكَ من يحزنونْ

فأهل الملايين فوق ملايينهم نائمون

وأهلُ الخيول الأصيلة.. فوق جواريهم يركبونْ

وأهل السياسةِ لا يقرأون.. ولا يكتبون

وأهل الثقافة يلتقطون ذبابَ المقاهي

وفي موج قهوتهم يُبحرونْ..

وليس لدينا قصيدةُ شعرٍ

تريدُ احترافَ الجنونْ..

لقد مرَّ عشرون عاماً علينا

ونحن نؤسّسُ حُكْمَ القبيلة

ونُلغي حدودَ الوطن.

ونرفع صورةَ شيخ القبيلة

ونعبدُ في كلّ يوم وثن

لقد مرّ عشرون عاماً علينا

نسينا بها عَبَقَ الياسمين، وصوت المطر

تخاف العصافير منا.. ويضجرُ منا الضَجَرْ

إلى أن أخذنا – مع الوقت – شكل الحَجَرْ

جرائدنا تتغرغَرُ كلّ صباح بذات الخبر

شوارعنا، تتقيأُ كلَّ مساءٍ ألوف الصُوَرْ

وليس هنالكَ، ما يُبهج

القلبَ، من كلّ أخبارنا

سوى نبأٍ عن دخول المليشيات أرضَ القمر

لقد مرَّ عشرون..

خمسون..

تسعون..

مليون عامْ

ومازلتُ أغمدُ سيفي بلحم الظلامْ

ومازلتُ أحرقُ كلَّ الطبول..وكلَّ الحواة..وكلَّ الخيامْ

وأشهدُ أني قرأت السلام على كلّ أهلي

ولكنهم لم يردوا السلامْ

فهل كنتُ أقرأ شعري

على كومةٍ من عظام؟

القصيدة الدمشقيَّة

هذي دِمَشقُ وهذي الكأسُ والراحُ!

إني أُحبُّ... وبعض الحبّ ذبّاحُ

أنا الدمشقيُّ لو شرَّحتُمُ جسدي

لسالَ منه.. عناقيدٌ، وتفّاحُ..

ولو فتحتُمْ شراييني بمِدْيتِكُمْ

سَمِعْتُمُ في دمي أصواتَ من راحوا..

زراعةُ القلبِ، تشفي بعضَ من عشِقُوا

وما لقلبي – إذا أحببتُ – جرّاحٌ

ألا تزالُ بخيرٍ، دارُ فاطمةٍ

فالنهدُ مُستنفرٌ.. والكحلُ صدَّاحُ

إنَّ النبيذ هُنا.. نارٌ معطرةٌ

فهل عيونُ نساءِ الشامِ، أقداحُ

مآذن الشام، تبكي إذْ تعانقُني

وللمآذن، كالأشجار أرواحُ

للياسمين، حقوقٌ في منازِلنا

وقطةُ البيت تغفو.. حيث ترتاحُ

طاحونةُ البنّ، جزءٌ من طفولتنا

فكيف ننسى؟ وعطرُ الهالِ، فوّاحُ

هذا مكانُ (أبي المعتز).. منتظرٌ

ووجه (فائزةٍ) حلوٌ ولمّاحُ

هنا جذوري.. هنا قلبي.. هنا لغتي

فكيف أوضِحُ؟ هل في العشقِ ايضاحُ؟

كم من دمشقية، باعت أساورَها

حتى أغازِلَها.. والشعرُ مفتاحُ..

أتيتُ يا شجر الصفصافِ، معتذرا

فهل تُسامِحُ هيفاءٌ ووضّاحُ؟

خمسون عاماً وأجزائي مبعثرةٌ

فوق المحيط، وما في الأفق، مصباحُ

تتقاذفتني بحارٌ لا ضِفافَ لها

وطاردتني شياطينٌ.. وأشباحُ

أقاتِلُ القُبْحَ في شعري، وفي أدبي

حتى يُفتّحَ نوّارٌ.. وقدّاحُ..

* * *

ما للعروبةِ تبدو مثل أرملةٍ

أليس في كُتُبِ التاريخ، أفراحُ؟

والشعرُ. ماذا سيبقى من أصالتهِ؟

إذا تولاّهُ نصّابٌ... ومدّاحُ

وكيف نكتُبُ والأقفالُ في فَمِنا

وكُلُّ ثانيةٍ، يأتيكَ سفاحُ..

* * *

حَمَلْتُ شِعري على ظهري.. فأتعبني

ماذا من الشِعرِ يبقى، حين يرتاحُ؟

* * *

من رسائل الحب

عندما أسمعُ الرجال..

يتحدثون عنكِ بحماسة

وأسمع النَساء..

يتحدثن عنكِ بعصبية..

أعرفُ..

كم أنتِ جميلة..

* * *

كلّما قبَّلتُكِ..

بعد طول افتراق..

أشعر أنني..

أضعُ رسالةَ حبٍّ مستعجلة

في علبة بريد حمراء..

* * *

لن يكونَ ذهابُكِ مأساوياً

كما تتصورين..

فأنا كأشجار الصفصافْ

أموت دائماً..

وأنا واقفٌ على قدمي..

* * *

حكاية انقلاب

ـ ١ ـ

أنا الذي أوحى إلى نَهدَيْكِ..

أن يُخَطّطا لأولِ انقلاب

في العالم الثالث – يا سيدتي –

وأخْطَرِ انقلابْ..

أنا الذي بالشعر، قد حَرَّضْتُهُما

فقاوَما أوامرَ الخليفةْ..

وأطلقا النارَ على سجّانِهما

وحطَّما الأبواب...

ـ ٢ ـ

أنا الذي قد هَرَّبَ السلاحَ

في أرغفةِ الخُبزِ..

وفي لفائف التبغِ..

وفي بطانَة الثيابْ

أنا الذي ذبحتُ شهريارَ في سريرِهِ

أنا الذي أنهيتُ عصر الوأدِ..

والزواج بالمتعة..

والإقطاعِ..

والإرهابْ..

ـ ٣ ـ

أنا الذي أحرقَ ألف ليلةٍ وليلةٍ

وخلَّصَ النساء..

من مخالب الأعراب

أنا الذي حميتُ وردةَ الأنوثّة

من هجمةِ الطاعون،

والُذبابْ..

أنا الذي جعلتُ من حبيبتي

مليكةً تسيرُ في ركابِها

الأشجارُ..

والنجومُ..

والسحابْ..

ـ ٤ ـ

وحين قامت دولةُ النساءْ

وارتفعتْ في الأفقِ البيارِقْ

توقفَ النضالُ بالبنادق...

وابتدأ النضالُ

بالعيون... والأهداب...

* * *

أوعية الصَّديد

((لا.. لا أريدْ..))

((المرَّةُ الخمسون.. إنّي لا أريدْ..))

ودفنتَ رأسكَ في المخدّة يا بليدْ

وأدرتَ وجهكَ للجدار.. أيا جداراً من جليدْ

وأنا وراءَك – يا صغيرَ النفس – نابحةُ الوريدْ

شَعْري على كتفِي بديدْ..

والريحُ تفتُلُ مقبضَ الباب الوصيدْ

ونباحُ كلْبٍ من بعيدْ

والحارسُ الليليُّ، والمزرابُ متّصِلُ النشيدْ..

حتى الغطاءَ.. سرقتَهُ

وطعنتَ لي الأملَ الوحيدْ

أمَلي الذي مزّقتَهُ..

أمَلي الوحيدْ..

ماذا أريدْ؟

وقُبَيْلَ ثانيتينِ..

كنتَ تجولُ كالثور الطريدْ

والآن..

أنتَ بجانبي..

قفصٌ من اللحم القديدْ..

ما أشنَعَ اللحم القديدْ..

ماذا أريدْ؟

يا وارثاً عبدَ الحميدْ..

والمتُكْى التركيُّ، والنرجيلةُ الكسلى تئِنُّ وتستعيد

الشركسيَّاتُ السبايا حول مضجعه الرغيدْ

يسقطنَ فوقَ بساطه..

جيداً فجيدْ..

وخليفةُ الإسلام، والمَلِكُ السعيدْ

يرمي.. ويأخُذُ ما يريدْ..

لا.. لم يُمتْ عبدُ الحميدْ

فلقد تقمصَ فيكُمُ عبدُ الحميدْ

حتى هُنا.. حتى على السُرُرُ المقوّسة الحديدْ

نحنُ النساءَ لكمْ عبيدْ

وأحطَّ أنواع العبيدْ..

كم مات تحت سياطكمْ نهدٌ شهيدْ

وبكى من استئثاركم خصرٌ عميدْ..

ماذا أريدْ؟

لا شيءَ. يا سفَّاحُ. يا قُرصانُ. يا قَبْوَ الجليدْ

فأنا وعاءٌ للصديدْ..

يا ويلَ أوعية الصديدْ..

هيَ ليس تملكِ.. أن تُريدَ ولا تُريدْ..

* * *

شؤون صغيرة

شؤونٌ صغيرَةْ

تمرُّ بها أنتَ.. دونَ التفاتِ

تُساوي لديَّ حياتي

جميعَ حياتي..

حوادثُ.. قد لا تثيرُ اهتمامكْ

أُعمّرُ منها قصورْ

وأحيا عليها شهورْ..

وأغزلُ منها حكايا كثيرَةْ

وألفَ سماءٍ.

وألفَ جزيرَةْ..

شؤونٌ.. شؤونكَ تلكَ الصغيرة

فحين تُدّخنُ.. أجثو أمامَكْ

كقِطتْك الطيّبةْ

وكلَي أمانْ

أُلاحقُ مزهوَّةَ مُعْجَبَةْ

خيوطَ الدخانْ

توزّعُها في زوايا المكانْ

دوائرْ...

دوائر...

وترحلُ في آخر الليل عنَّي

كنجمٍ، كطيبٍ مهاجرْ

وتتركني يا صديقَ حياتي

لرائحة التبغ والذكرياتِ

وأبقى أنا.. في صقيع انفرادي..

وزادي أنا.. كلُّ زادي

حطامُ السجائرْ

وصحنٌ يضمُّ رماداً..

يضمُّ رمادي..

وحينَ أكونَ مريضَةْ

وتحملُ أزهارك الغاليَهْ

صديقي إليَّ..

وتجعلُ بين يديْكَ يديْ

يعودُ ليَ اللونُ والعافيَهْ

وتلتصقُ الشمسُ في وجنتيْ

وأبكي...

وأبكي...

بغير إرادةْ

وأنتَ تردُّ غطائي عليَّ

وتجعلُ رأسيَ فوقَ الوسادَة

تمنيّتُ كلّ التمنّي

صديقي.. لو أنيّ

أظلُّ.. أظلُّ عليلَهْ

لتسألَ عنّي..

لتحمل لي كلّ يومٍ

وروداً جميلَةْ..

وإنْ رنْ في بيتنا الهاتفُ

إليه أطيرْ

أنا يا صديقي الأثيرْ

بفرحة طفلٍ صغيرْ

بشوق سُنُونوّةٍ شاردَهْ

وأَحتضنُ الآلةَ الجامدهْ

وأعصر أسلاكَها الباردَهْ

وأنتظرُ الصوتَ.. صوَتكَ يهمي عليّ

دفيئاً، مليئاً، قويْ

كصوت ارتطام النجومْ

كصوت سقوط الحُلِيْ

وأبكي.. وأبكي..

لأنّكَ فكرّتَ فيّ

لأنَكَ من شُرُفات الغيوبْ

هتفتَ إليَّ..

ويومَ أجيءُ إليكْ..

لكي أستعيرَ كتابْ

لأزعم أنّي أتيتْ..

لكي أستعيرَ كتابْ

تمدُّ أصابعكَ المُتْعَبَهْ

إلى المكتبَهْ..

وأبقى أنا.. في ضباب الضبابْ

كأني سؤالٌ.. بغير جوابْ

أُحدّقُ فيك.. وفي المكتبَهْ

كما تفعلُ القطّةُ الطيّبهْ..

تُراكَ اكتشفتَ؟

ترُاك عرفتَ؟

بأنيَ جئتُ لغير الكتابْ

وإنيَ لستُ سوى كاذَبهْ..

..وأمضي سريعاً إلى مخدعي

كأني حملتُ الوجودَ معي..

وأُشعلُ ضوئي..

وأسدِلُ حولي الستور

وأنبشُ بينَ السطورِ، وخلفَ السُطُورْ

وأعدو وراء الفواصلِ، أعدو

وراءُ نقاط تدورْ..

ورأسي يدورْ

كأنّيَ عصفورةٌ جائعهْ

تفتشُ عن فضّلاتِ البُذُورْ

لعلّكَ.. يا صديقي الأثيرْ

تركتَ بإحدى الزوايا

عبارةَ حُبٍّ صغيرةْ..

جُنَيْنَةَ شوقٍ صغيرَةْ..

لعلْكَ بين الصحائف خبأتَ شيَّا

سلاماً صغيراً.. يُعيد السلامَ إليّا..

.. وحين نكونُ معاً في الطريقْ

وتأخذُ – من غير قصدٍ – ذراعي

احسُّ أنا يا صديقْ

بشيءٍ عميقْ..

بشيءٍ.. يشابهُ طعمَ الحريقْ

على مِرْفَقي

وأرفعُ كفَّيَ نحو السماءْ

لتجعلَ دربي بغير انتهاءْ

وأبكي..

وأبكي..

بغير انقطاعِ..

لكي يستمرُّ ضيّاعي..

وحين أعودُ مساءً.. إلى غرفتي

وأنزعُ عن كتفيَّ الرداءْ

أحسُّ – وما أنتَ في غرفتي –

بأنَّ يدَيْكَ

تلفّانِ في رحمةٍ مِرْفقي

وأبقى لأعبُدَ يا مرهقي

مكانَ أصابعكَ الدافئاتْ

على كُمّ فُسْتَانيَ الأزرقِ

وأبكي..

وأبكي..

بغير انقطاعٍ..

كأنَّ ذراعيَ.. ليستْ ذراعي..

* * *

وَشوَشَة

في ثغرها ابتهالْ

يهمُسُ لي: تعالْ

إلى انعتاقٍ أزرق

حدودُهُ المحالْ

نشردُ تيّاريْ شذا

لم يخفقا ببالْ

لا تستحي.. فالوردُ في

طريقنا تلالْ

ما دمتِ لي.. مالي وما

قيلَ، وما يقالْ..

وشوشةٌ كريمةٌ

سخيّةُ الظلالْ

ورغبةٌ مبحوحةٌ

أرى لها خيالْ

على فمٍ يجوعُ في

عروقه السؤالْ..

يهتفُ بي عقيقُه

غداً لكَ النوالْ

أنا كما وشْوشْتِني

ملقىً على الجبالْ

مخدّتي طافيةٌ

على دم الزوالْ

زَرَعتُ ألفَ وردةٍ

فدى انفلاتِ شالْ

فدى قميصٍ أخضرٍ

يوزّع الغِلالْ..

قومي إلى أرجوحةٍ

غريقةِ الحِبالْ

نأكلُ من كرومنا

ونطعمُ السِلالْ

وأشربُ الفمَ الصغيرَ

سُكّراً حلالْ

إنْ ألثمِ اليمينَ منكِ

قلتِ: والشِمالْ

لا تسألي: تحبني؟

كنتُ.. ولا أزال

خلاصة عامة

ومما سبق عرضه في صفحات هذا الكتاب، فقد لمسنا دأب نزار قباني، وسعيه الدائم، على أن تكون أشعاره بصورة عامة، مغايرة للشعر السائد في عصره، فقد احترف وراق له الطيران خارج السرب، والسباحة عكس التيار، لأنه كان يطمح إلى احتلال الوطن العربي شعرياً، وبالفعل فإنه احتله بالحبّ، وبالكلمات الواعية، خلال رحلته المظفرة على درب القوافي.

قد لا يكون قاموس نزار قباني شديد الثراء، لكن القارئ يسترعي انتباهه، مهارته التي يحسده عليها الكثير من الشعراء، على إعادة تشكيل وصياغة المفردات، ووضعها أمام آلاف الاحتمالات والحالات، مما يجعلنا نتذوق في شعره، براءة اللغة، وجمالية الرمزية وهندستها المنسوجة بعناية، وروعة الرومانسية المتسربلة بغنائية تذوب رقة، وأخيراً الواقعية الحياتية: انتصارات.. وانكسارات.. وطموحات.. والملتزمة بقضايا الإنسان المحاصر في حدود الجغرافيا والتاريخ القديم والحديث معاً.

ومما استرعى انتباهنا من خلال العديد من القصائد التي اخترناها، في فصل مختارات شعرية، إصرار القباني وتعمده، على تقسيم القصيدة إلى مقاطع تطول وتقصر حسب مقتضى الحال، وكذلك إلى فقرات شعرية، من أجل الاستحواذ على مشاعر (المتلقي) وكسب تعاطفه، وإيصال ما يريد قوله من أفكار ساخنة وجريئة عبر هذه المقاطع، إذا لم نقل هذه الطلقات الشعرية.

ويلجأ الشاعر في هذا المجال إلى تكرار لازمة معينة، تتكرر عند بداية كل مقطع. ففي قصيدة (الحزن) تجد عبارة (علّمني حُبّك) تتكرر أكثر من عشر مرات وبإيقاعات مختلفة، وفي قصيدة (الحب في الجاهلية) تجد عبارة (شاءت الأقدار يا سيدتي) تتكرر سبع مرات في خمسة مقاطع:

شاءت الأقدار، يا سيدتي

أن نلتقي في الجاهليهْ

حيث تمتد السماواتُ خطوطاً أفقيّهْ

والنباتات، خطوطاً أفقيهْ

والكتابات، الديانات، المواويل، عَروضُ الشعر

والأنهار والأفكار والأشجار والأيام والساعات تجري في خطوط أفقيهْ

* * *

شاءت الأقدار..

أن أهواك في مجتمع الكبريت والملح وأن

أكتب الشعرَ على هذي السماء المعدنيهْ

حيث شمس الصيف فأس حجريهْ

والنهاراتُ قطارات كآبهْ..

شاءت الأقدار أن تعرف عيناك الكتابهْ

في صحارى ليس فيها

نخلة.. أو قمر.. أو أبجدية

اعتمد نزار قباني في كثير من شعره على الصورة المركبة التي تخرج عن حيز المشبه والمشبه به، إلى وجود أكثر من عنصر للمشبه وكذلك للمشبه به، ويحمد لنزار، على حد تعبير الدكتور عبد الرحمن محمد الوصيفي، أنه لم يفتن بتكديس الصور وتوليد بعضها من بعض، دون أن يكون في القصيدة خط شعوري أو فكري

من الأساس. وتتحول القصيدة عند ذلك إلى تكدس يضيع في زحامه المسار الشعوري العام، وبدل أن تكون الصور وسيلة يحدد الشاعر بواسطتها أبعاد رؤيته الشعرية وتخومها أصبحت غاية في ذاتها يضحي الشاعر في سبيلها بتماسك هذه الرؤية وتكاملها. وقد نجح نزار إلى حدّ ما في تجنب الصور المتعسفة:

إنني السندباد مزَّقه البحرُ   وعينا حبيبتي الميناءُ

مضغَ الموجُ مركبي وجبيني   ثقبته العواصفُ الهوجاءُ

إن في داخلي عصورا من الحزن   فهل لي إلى العراق التجاء؟

فمن الوهلة الأولى نستشعر الغربة الناتجة عن الصورة في البيت الأول، فالسندباد دلالة على الغربة الأزلية، وهذا التشرد الأبدي، وعلى مستوى بناء الصورة نجد الشاعر (السندباد) هو يعارك مخالب الموج من أجل الوصول إلى الميناء (حبيبته). والميناء هنا دلالة الأمان والاطمئنان والاستقرار، والمحبوبة هي (العراق).

وفي البيت الثاني يأتي الموج في صورة وحش يرغب بمضغ وابتلاع المركب البحري، والعواصف المزمجرة، بدورها، تعصف بوجه الشاعر، وهنا يبدو التصميم والتحدي والعزيمة عند (الشاعر) للانتصار على كل هذه العوائق، ويأتي ذلك في البيت الثالث، مبينا ما عاناه الشاعر من التشرد والضياع والقهر.

((والصورة الكلية هنا تنصب على التجربة الشعرية كلها، فتعدها صورة واحدة متماسكة ذات أجزاء متناسقة تقوم فيها الصورة الكلية للتجربة بدور الموضوع في القصة والمسرحية، وتقوم فيها الصورة الجزئية بدور الأحداث المؤدية إلى قمة الموضوع، وكما أن الأحداث لابد أن تأتي متتابعة وفي منطق فني، فكذلك لابد أن تتآزر الصورة الجزئية وفق هذا المنطق وهذا المفهوم للصورة الكلية)).

وعلى هذا يمكن أن تؤدي الصورة الجزئية المتناسقة في شعر نزار، إلى الارتفاع بالصورة الكلية إلى القمة الفنية:

ـ ١ ـ

كنتُ أمشي معها في لندن

باحثا عن يدها..

عن صوتها..

عن خصرها الضائع مني

في ضباب العاصمة

هي كانت معطفي

مثلما كنت أنا معطفها

في زمن العاصفه..

ـ ٢ ـ

كنت أمشي معها في لندن

تحت سماءٍ غائمهْ

باحثاً عن لغةٍ تشبهني

باحثاً عن قهوة تشربني

باحثاً عن ملجأ

في ثنايا الخصلات الفاحمة

ليس عندي وطن أقصده

غير عيني فاطمه...

ـ ٣ ـ

هل أنا أكتبُ؟

أم فاطمة تكتبني

إنها جسر من الشعر

على كل العصور القادمه

....

....

ـ ٥ ـ

هذه فاطمةٌ في (بيكاديللي)

يصنع الكُحْلُ بعينيها ألوفَ المعجزاتِ

كل من شاهدها في جانبي

ظنها صفصافةً

تغسل الشعر على نهر الفرات.

فاطمة إذن هي لغة الضاد التي يبحث عنها الشاعر وسط الحياة اللندنية الصاخبة، فاطمة هي الرمز والتاريخ العربي والمستقبل، والوطن العربي.

ونحن نلمح في مقاطع قصيدة (فاطمة في هايد بارك) الشعور الصادق المتدفق من الشاعر، وتناسق الصور الجزئية، مما دفع بالقصيدة، كوحدة متكاملة، إلى درجة القبول الحسن، بل الإبهار على مستوى النقاد والقراء:

ـ ٦ ـ

هذه فاطمةٌ

تقتحمُ التاريخَ من كل الجهات

إنها تدخلُ كالإبرة

في كل تفاصيل حياتي.

آه.. كم تعجبُني فاطِـمـةٌ

عندما تجلسُ كالقطةِ بين المفرداتِ.

تأكلُ الفتحةَ.. والضمةَ.. في شعري

وتبتلُّ بأمطار دواتي

ـ ٧ ـ

خبئيني.. تحتَ قُفْطانِكِ

يا أحلى جميع الفاطِماتِ

لندن باردةٌ جداً..

وإني خائفٌ جداً

فنامي في جفوني، أو جفون الكلماتِ.

حاولي أن تُصبحي أمّي

لشهرٍ.. أو ليومٍ.. أو لبعض اللحظاتِ

....

....

....

ليس غريباً بعد هذه السمات الفنية المبتكرة، التي تظهر في شعر نزار قباني، أن يتسابق كبار الفنانين والفنانات العرب، إلى تحويل العشرات من قصائده إلى أغنيات، أسهمت ولو على نطاق ضيق، برفع مستوى الأغنية العربية، التي انحدرت في السنوات الأخيرة إلى القاع، بل دخلت إلى نفق مظلم يصعب الخروج منه، وذلك لأسباب لسنا في صدد الحديث عنها...

إن موسيقى الشعر، وهي ملازمة لشعر نزار، شرط ضروري ضمن الشروط التي تحفز الملحن، على حد تعبير الناقد فكتور سحّاب، على اختيار القصائد التي يهمّ بتلحينها. ذلك أن للموسيقى الشعرية عند الملحنين أثراً مضاعفاً ولاشك.

فإذا انعدمت هذه الموسيقى الشعرية، أعرض الملحنون وتعذر على (الشعر) أن يلهمهم ويحرك ينابيع اللحن في كوامن نفوسهم، ولعلّ هذه الأبيات التي تؤديها السيدة فيروز تثبت صحة هذا الرأي:

لا تسألوني ما اسمه حبيبي　　أخشى عليكم ضوعة الطيوب

والله لو بحت بأي حرف　　تكدّس الليلكُ في الدروب

ترونه في ضحكة السواقي　　في رفة الفراشة اللعوب

في البحر في تنفس المراعي　　وفي غناء كل عندليب

في أدمــع الــشتاء حــين يبكــي وفي عطــاء الديمــة الــسكوب

محاســـنٌ لا ضـــمّها كتـــاب ولا ادعتهـــا ريـــشة الأديـــب

إنـه بحـق شـاعر العـصر، وفتـى الـشعر الأول، وهـو الحاضـر بقـوة في الـذاكرة العربية، وفي كل أيك وخميله، وستبقى أشعاره ترددها الشفاه لعقود قادمة..

فقد قرأ له بشغف كل عربي يعرف القـراءة، في مرحلـة (مـا) مـن حياتـه، وتـرنم بشعره وشجوه من لا يعرف القراءة والكتابة، عن طريق القصائد المغنـاة لـه. وفي هـذا الصدد فقد بلغ الإعجاب بأحدهم أن أعلـن في احتفـال عـام المقولـة التاليـة: صـحيح لم أحيـا في عـصر المتنبي الجـد الأكـبر للشعراء العـرب، لكنني وجـدت في عـصر نـزار قباني.

مصادر ومراجع الكتاب

الأعمال الشعرية الكاملة، نزار قباني.

قصتي مع الشعر، نزار قباني.

النرجسية في أدب نزار قباني، د. خريستو نجم.

مدخل إلى الموسوعة الشاملة للشاعر نزار قباني، برهان بخاري.

بول إيلوار مغني الحب والحرية، كلودروا، ترجمة عبد الوهاب البياتي وأحمد مرسي.

كلمات، جاك بريفير، ترجمة صياح الجهيم.

الشعر العربي والقضية الفلسطينية: من النكبة إلى النكسة، د.أحمد سليمان الأحمد.

الأعمال الشعرية الكاملة، عمر أبو ريشة.

مجلة الهلال، يونيو ١٩٩٢م.

مجلة الهلال مايو ١٩٩٤.

النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال.

نزار قباني شاعر لكل الأجيال، إعداد وتحرير د. محمد يوسف نجم.

نزار قباني شاعراً سياسيا، د. عبد الرحمن محمد الوصيفي.

الفهرس